حاضنات النص في خطبة الوداع

قراءة بنيوية

إعداد

الدكتور علي يوسف حسين اليعقوبي

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية

جامعة الأقصى

الملخص:

البحث الذي بين أيدينا هو دراسة تحليلية لخطبة الوداع، اجتهد الباحث في الكشف عما تكتنزه من انزياحات لغوية، وصوتية، وصرفية، ونحوية، ودلالية، من أجل البحث في أسرارها، والكشف عن المسكوت من مستوياتها، وقد اشتملت الدراسة على تمهيد، ودواعي كتابة البحث، وسيمياء العنوان، وخمسة مباحث، المبحث الأول: الحاضنة الصوتية، والثاني: حاضنة معمارية اللغة، والثالث: الحاضنة الدلالية، والرابع: الحاضنة الصرفية، والخامس: الحاضنة النحوية، ثم النتائج.

Incubators text in Farewell sermon
perusal in structural

Abstract:

Search in our hands is the study of analytical his farewell sermon ,worked hard researcher in revealing what Hide of shifts of language , and voice , and morphological , and syntactic , and semantic , in order to search its secrets , and revealing the untold story of levels , the study included the Preface, and reasons for writing the search, Semiotics and the title, and five sections , the first section : Acoustic incubator , and the second :an architectural language incubator , and III: semantic incubator ,and fourth: morphological incubator, and V :incubator grammatical , then the results.

التمهيد:

لقد نازعت الخطابة الشعر في كثير من المحافل عند العرب في العصر الجاهلي؛ حيث عدوها ركيزة مهمة من ركائز التبليغ عندهم، حتى إذا ما بزغ نور الإسلام أصبحت دعامة رئيسة من دعائم الدعوة، يجتمع الناس إلى الخطيب في كثير من المحافل، والمناسبات، والتجمعات، والمناسبات الدينية، والاجتماعية، وغيرها من المواقف التي تستدعي وجود الخطيب دون الشاعر، لما له من حضور، وتأثير بالغين. فالخطابة في الإسلام مظهر من مظاهر الحياة اليومية المتجددة، التي تقوم بدور خطير في غرس القيم، والأفكار، والمبادئ، كما أن الخطابة صناعة الرسل عليهم السلام، هذا يقتضي الفصاحة، والبلاغة، والبيان، وما من شك بأن خطبة كالتي بين أيدينا، حرية بأن تدرس دراسة علمية وافية، فالبلاغة النبوية تأتي في أعلى مراتب القول البشري، في حسن التأتي للمعنى، بأدق ما يمكن أن تؤديه الألفاظ، والتراكيب، والجمل، من دلالات، تقع في النفس موقعًا مؤثرًا، "فألفاظ النبوة يعمرُها قلبٌ متصلٌ بجلال خالقه، ويصقِلها لسانٌ نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي، ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل، فقد كانت هي من دليله"(١) فكلامه ﷺ لا يبلى مع الزمن، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَذهَبُ برونقهِ، ورواء مائه كثرةُ الترددِ، وتقادمُ السنين، والآماد، إلا أن يشاء الله، و"إذا كان من شأن العرب أن يتكلفوا القول صناعة، يحسنها خطيبهم، وحكيمهم، فإن الرسول ﷺ -وقد صنعه الله على عينه- يرسل الحديث سليقة، وإلهامًا، سليمًا مما يعتري كلام البشر من خلل، أو اضطراب، أو يعتور محدثهم من عَيٍّ أو حصر"(٢) ولشرف الخطابة، وتأثيرها في تطهير النفوس أوجبها الشارع للمسلمين في مساجدهم كل جمعة، وعيد، وفي الحج، وأوجب على المسلمين الحضور، والتزام الأدب مع الخطيب.

إن المهمة الأولى -والرئيسة للنبي محمد ﷺ- هي التبليغ عن رب العزة ﷻ، جاء ليبلغ رسالات ربه، وذلك لا يتم إلا ببلاغة، وفصاحة، وبيان؛ لأن البلاغ، والتبليغ، هو إيصال

(١) الرافعي، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** (بيروت، دار الكتاب العربي، ط٨، ١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٥م) ص١٩٣.

(٢) فالح، جليل رشيد، **خطبة الوداع دراسة بلاغية تحليلية، مجلة آداب الرافدين**، ع ١٣، ص٤٠٧-٤٢٤.

الكلام للسامعين على أحسن صورة، تفضي إلى الإقناع، والإفهام. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ (١)، ولهذا تضرع موسى عليه السلام إلى ربه عز وجل أن يرسل معه أخاه هارون، والسبب: أنه أفصح منه لسانًا، وأوضح بيانًا: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ ﴾ (٢)، كما امتدح جل جلاله نبيه داوود عليه السلام فقال سبحانه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ (٣)، فإذا كانت الفصاحة، والبلاغة مطلوبتان في دعوة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء، فرسالة محمد ﷺ أولى، وأوجب؛ لأن دعوته أعم، وأرحب، ولهذا كان من أبرز صفات الرسول ﷺ وأجلى آيات عظمته؛ أنه في الذروة العليا من البيان، وفصاحة اللسان، فقال عن نفسه فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه: "فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ": وذكر منها: ... جَوَامِعَ الْكَلِمِ .. (٤) ولعل من العوامل التي أسهمت في فصاحته ﷺ أنه نشأ نشأة قرشية، بدوية، خالصة، واسترضع من بني سعد بن بكر، فاجتمعت له فصاحة اللسان، واللغة، واللهجة، وأصالة المحتد، والأرومة، فقال عن نفسه كذلك: (أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ مَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ)(٥)، ولهذا فقد امتاز كلامه ﷺ بالصدق في المعنى أولًا، والبلاغة في النسج، والصياغة ثانيًا، فلا تقع الأذن منه على كلمة مستكرهة، أو لفظة نابية،

(١) سورة إبراهيم: الآية ٤.

(٢) سورة القصص: الآية ٣٤.

(٣) سورة ص: الآية ٢٠

(٤) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، **سنن البيهقي**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا (بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٤ هـ -٢٠٠٣ م)، باب: أينما أدركتك الصلاة فصل، رقم الحديث: ٢٤٦٥، ج٢، ص٦٠٧.

(٥) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد، **شرح السنة**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط-محمد زهير الشاويش، (دمشق، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م)، باب: فرض الجمعة، رقم الحديث: ١٠٤٥،، ج٤، ص٢٠٢

لم يرد بهذه الصيغة إلا عند البيهقي، وقد ورد بصيغ أخرى في جامع الأحاديث: عن بريدة قال : كان النبي -صلى الله عليه وسلم- من أفصح العرب رقم: ٣٦٤٨٥، ج٣، ص٣٩٥. وكذلك ورد في كنز العمال برواية بريدة، وكذلك في مشكل الآثار: للطحاوي ... وَهُوَ أَفْصَحُ الْعَرَبِ.

(قال المزني: سمعت الشافعي، يقول: "بَيْدَ" من أجل، قال أبو عبيد: وفيه لغة أخرى: "مَيْدَ أنهم"، بالميم، والعرب تدخل الميم على الباء، والباء على الميم)

أو تنافر في حروف الكلمة الواحدة، أو بين الكلمة، والكلمة، وقد ورد في "المقابسات" أن أبا حيان سأل أستاذه أبا سليمان المنطقي عن البلاغة ما هي؟ فقال: "هي الصدق في المعاني مع ائتلاف الأسماء، والأفعال، والحروف، وإصابة اللغة، وتحري الملاحة المشاكلة برفض الاستكراه، ومجانبة التعسف"(١)، ولعلنا لا نستبق الأحداث، والأحكام بذكر ما أورده الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" من وصف دقيق للكلام النبوي الشريف بقوله: "هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجَلَّ عن الصَّنعة، ونُزِّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد: ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعير، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشِيدَ بالتأييد.."(٢).

وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة، والحلاوة، بين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج(٣) إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز، ولا يلمز، ولا يبطئ، ولا يعجل، ولا يسهب، ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أصدق لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه"(٤).

(١) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس ، **المقابسات**، تحقيق: حسن السندوبي (الكويت، دار سعاد الصباح، ط٢، ١٩٩٢م) ص٢٩٣.

(٢) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٧، ١٤١٨هـ=١٩٨٨م) ج٢، ص١٧.

(٣) الفلج: الفوز، والظفر. ينظر/ ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين، **لسان العرب** (بيروت، لبنان، دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ)ج٢، ص٣٤٧.

(٤) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٧، ج٢، ص١٧، ١٨.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على من أرسله ربه معلمًا، وهاديًا، وبشيرًا...

أما بعد: فإن الخطبة النبوية العظيمة التي بين أيدينا، فيها الكثير من القيم الأخلاقية، والانزياحات(١) اللغوية، والحاضنات الصوتية، والصرفية، وحاضنات التراكيب، والدلالة، ولا بد للدارس من الحفر في طبقاتها، وتعمق أسرارها، والكشف عن مستوياتها المسكوت عنها؛ فالنص الأدبي مركب فريد، ومعقد، فهو تركيب لغوي، متعدد الدلالات، وذو طبقات مختلفة، لا ينفك بعضها عن بعض، ويصعب توحيد الرؤية تجاهه، ولهذا وجدنا من يجاهر بأن "النص لا يمكن حصره، أو وصفه"(٢)، ولذا فالنقد تنقيب في طبقات النص، واستكناه لمكوناته المتعددة، وكشف عن أسراره، ومستوياته.. فكلما أمعن فيه الناقد النظر، اكتشف زواياه الخفيّة، وكلما قرأنا أكثر، تولدت لدينا قيم جمالية أكثر، فكل قراءة جديدة، تعني ولادة نصية جديدة، فالنص لا يستسلم لبراعة الناقد بسهولة، ويسر، ويروغ منه مستعصيًا على الحسم، والدلالة القاطعة(٣) وقد أجاد الروائي، والفيلسوف الإيطالي امبرتوايكو(٤) حين وصف روغان النص، وانفتاحه اللانهائي، وصعوبة الإمساك به بأنه "حرباوي، زئبقي(٥)،

---

(١) جاء في معجم المعاني أن الانزياح لغة هو التنحي، والابتعاد، والانْزِياحُ عَنِ الْمَعْنى الحَقيقِيِّ لِلْكَلِمَةِ : الابتِعادُ، وفي الاصطلاح: هو استعمال المبدع للغة مفردات وتراكيب وصورًا، استعمالًا يخرج بها عما هو مُعتاد ومألوف بحيث يؤدي ما ينبغي له أن يتّصف به من تفرد وإبداع وقوّة جذب وأسر.

(٢) الكبيسي، طراد، **ملاحظات في النص، مجلة أفكار**، (عمان ع١١١، حزيران ١٩٩٣م) ص٢٢.

وينظر/ الغريبي، خالد، **النص مشروع تساؤل**، (تونس مجلة الحياة الثقافية، ع٦٤، ١٩٩٢م) ص١٤-١٩.

(٣) ينظر/ الصكر، حاتم - **ترويض النص دراسة للتحليل النصي في النقد المعاصر، إجراءات ومنهجيات** (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٩٨م) ص٦، ٢٨.

(٤) امبرتوايكو: فيلسوف إيطالي، وروائي وباحث في القرون الوسطى، وُلد في٥ يناير ١٩٣٢، ويُعرف بروايته الشهيرة اسم الوردة، ومقالاته العديدة. وهو أحد أهم النقاد الدلاليين في العالم.

(٥) امبرتوايكو، **في أصول الخطاب النقدي الجديد (تحليل اللغة الشعرية)**، ترجمة: أحمد المديني، (بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، ١٩٨٧م) ص٨٢.

وقد وصفت انفتاح النص على القراءات المتعددة بالزئبقي لانفتاحه اللامتناهي، وأما وصفه بالحرباوي نظرًا لتقلبه على معان متعددة لا يمكن الإمساك بها، ولا يعني هذا أننا نتقاطع مع هذه الرؤية بالمطلق، أو بلا حدود، أو أن نفتح المجال لتعدد القراءات اللامتناهي، فهذا أمر يفضي إلى الفوضى، نعم كلما تعددت القراءات انفتحت مغاليق النص، ولكن =

تتعدد انفتاحاته، وانزياحاته النصية، بتعدد قراءاته الواعية.

إننا أمام نص فريد، له خصوصية غير تقليدية؛ كونه ليس خطابًا بشريًا خالصًا، وهذه الخصوصية تتطلب رؤية دقيقة في التنظير، والتناول.. يجب مراعاتها، والكشف عن سماتها، لأن إغفال هذه الخصوصية من شأنه أن ينطوي على بعض الشبهات، فربما جاءت هذه الشبهات في المسكوت عنه غير المصرح به، مما قد يدفع بعض الباحثين إلى الإحجام عن دراسة الحديث النبوي الشريف دراسة لغوية، وبلاغية، خشية الوقوع في مثل هذه المزالق، ولعل من هذه الشبهات ما أثاره المستشرقون حول ما إذا كانت فصاحته ﷺ هي ثمرة طبيعية لبيئته، وتربيته، ونشأته... وهل يجوز النظر إليه ﷺ على أنه أديب موهوب، حاز على قدر كبير من الفصاحة، والبلاغة، والبيان؟![1]، على كل حال فإن الحديث الشريف نص متناسق، ومتكامل، لا يعلو عليه في مجال البيان إلا كتاب الله بلاغة، وفصاحة وروعة، ولكنه صياغة بشرية، بتوجيهات ربانية، فهو في شؤون التشريع؛ وحي إلهي، وفي شؤون الحياة رأي بشري، قابل للنقاش، فها هوﷺ ينزل عند رأي الحباب بن المنذر يوم بدر، فيجعل بئر بدر خلفه حتى يشرب المسلمون، ولا يشرب الكفار، وحتى يسقي المسلمون ولا يسقون[2] ومما يؤكد أن كلامه ﷺ ليس كله وحيًا يوحى؛ أنه عليه السلام قَدِمَ الْمَدِينَةَ، وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ، يَقُولُونَ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: «مَا تَصْنَعُونَ؟» قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ، قَالَ: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا» فَتَرَكُوهُ، فَنَفَضَتْ أَوْ فَنَقَصَتْ، قَالَ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ"[3].

=

وفق رؤية محددة، وضوابط معينة.

(١) ينظر/ بلبع، عيد، **مقدمة في نظرية البلاغة النبوية، السياق وتوجيه دلالة النص**، (بلنسية للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م) ص٥٥، وما بعدها (بتصرف).

(٢) ينظر/ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**،تحقيق: محمود حسن، (دار الفكر، ١٤١٤هـ=١٩٩٤م) ج٢، ص٣٥٧.

(٣) النيسابوري، مسلم بن الحجاج، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت، ط)، باب بوجوب امتثال ما قاله شرعا، رقم الحديث: ١٤٠- ٢٣٦٢، ج٤، ص ١٨٣٥.

أولًا: مصطلحات البحث:

١) حاضنات: هناك من الباحثين من أطلق عليها اسم طبقات النص، أو بيئات النص، أو مستويات النص.. وكلها مصطلحات ذات حمولات دلالية تلامس مضمون النص بطريقة أو بأخرى، حسب رؤية الباحث لمشكلة البحث.

أما **حاضنات** فنعني بها هنا ما للنص من دلالات، وتعانقات حميمية، ونفسية خاصة، وما توحي به كلمة حاضنة من إشعاعات، وإشارات توليدية، توحي بالدفء والحنان من جهة، والنماء من جهة أخرى.

٢) البنيوية: أما ما يتصل بالجانب البنيوي، فقد اقتصر على الاستفادة –فقط– من هذا المنهج بوصفه أداة من أدوات التحليل، والتفسير، بعيدًا عن الجانب الفكري، الأيديولوجي.

ثانيًا: أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث باعتباره محاولة لسبر أغوار النص النبوي، ودراسته بنيويًا، من خلال عدد من الحاضنات النصية.

ثالثًا: مشكلة البحث:

جاء البحث للإجابة على سؤال كبير، وهو: هل من الممكن الاستفادة من أدوات النقد الحديث في دراسة النص النبوي الشريف؟.

رابعًا: أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

١) تجلية كوامن التناسق، والتناغم، والتكامل صوتيًا، ومعماريًا، وصرفيًا، ودلاليًا، وتركيبيًا في خطبة الوداع.

٢) محاولة تطبيق المنهج التحليلي البنيوي على الخطبة.

٣) بيان أهمية الخطابة النبوية، ومساهمتها في الدعوة إلى الله.

٤) الإجابة على بعض التساؤلات، أو الشبهات التي قد تعترض الباحث أثناء مسيرة

هذا البحث.

خامسًا: أسئلة البحث:

١) هل من الممكن دراسة النص النبوي من خلال مناهج البحث الحديثة، ومن خلال مستويات النص الصوتية والصرفية والدلالية...الخ؟

٢) هل يمكن للخطابة أن تتبوأ مكان الصدارة في الدعوة إلى الله.

٣) هل النص النبوي وحي من عند الله، أم هو كلام بشري صرف؟

٤) هل النبي محمد ﷺ أديب موهوب؟

سادسًا: منهج الدراسة:

اعتمد البحث بشكل كلي على المنهج التحليلي الوصفي؛ حيث سيقوم الباحث بدراسة بعض الظواهر الموجودة في خطبة الوداع دراسة وصفية تحليلية، والسبب الأساس لإجراء هذا النوع من البحوث هو التعرف على سبب حدوث ظاهرة معينة، وهذا ما حاولت الدراسة تفسيره من خلال الحاضنات المختلفة موضوع الدراسة.

سابعًا: الدراسات السابقة:

لعل أكبر تحد واجه البحث هو عدم وجود دراسات كافية تناولت خطبة الوداع بالذات، عدا عن تناولها بالتحليل من داخل النص ذاته، مما ولد مشكلة حقيقية أمام الباحث، وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت بعض الدراسات البلاغية القليلة التي تناولت الخطبة من الزاوية البلاغية فقط، وهي دراسة ذات بعد مختلف تمامًا عما نحن بصدده الآن، وعلى العموم لا يخلو بحث من بعض الصعوبات، وإلا فقد لذة الكشف، والانتصار. لقد حاولت أثناء إعداد هذا البحث جمع ما يمكن الحصول عليه من مصادر، ومراجع ذات صلة بالموضوع، فعثرت على بعض الدراسات المساعدة، التي أفادت كثيرًا في الدفع بالبحث حتى وصل إلى صورته التي هو عليها الآن، ومن هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر: خطبة الوداع دراسة بلاغية، خطبة الوداع بدائع وفرائد، الخصائص، الأصوات اللغوية، النظرية اللسانية عند ابن حزم، التكرار في الحديث الشريف..وغيرها الكثير من الدراسات، لكنني لم أقع على دراسة مباشرة تتناول أي مستوى من مستويات النص في خطبة الوداع بالذات.

نص الخطبة:(١)

"الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ اللهُ فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد:

أيُها الناسُ، اسمعوا مني أبينْ لكم؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيُّها الناسُ:

إن دماءكم حرام عليكم، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم أشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أولَ دم نبدأ به دمُ عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد

(١) ويطلق عليها -أيضًا- خطبة البلاغ.

هذا هو النص الذي اعتمدت عليه الدراسة، وينظر نص الخطبة على اختلاف في اللفظ في:

* الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٧، ١٤١٨هـ= ١٩٨٨م) ج٢، ص٣١.
* ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد، **العقد الفريد** (د. تح) (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٤هـ) ج٤، ص ١٤٨.
* ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (بيروت، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٧هـ= ١٩٩٧م) ج٢، ص١٦٦.
* ابن هشام، عبد الملك، **سيرة ابن هشام**، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، (القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ط ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م) ج٢، ص٦٠٣.
* الباقلاني، أبو بكر، **إعجاز القرآن**، تحقيق: السيد أحمد صقر، (القاهرة، دار المعارف، ط٥، ١٩٩٧م) ص١٣٠.

وقد ذكرت خطبة الوداع في الكثير من المصادر القديمة الأخرى.

المطلب[1]، وإن مآثرَ الجاهلية موضوعةٌ غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا، والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد، فهو من أهل الجاهلية.

أيُّها الناسُ:

إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه[2] قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيُّها الناسُ:

إنما النسيء[3] زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عامًا، ويحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمواتِ والأرضَ وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله، يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حرم ثلاثة متواليات، وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب[4] الذي بين

(١) وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته بنو هذيل.

(٢) وجاء في المنتخب من مسند ابن حميد "إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا آخر الزمان وقد رضي منكم بمحقرات الأعمال فاحذروه في دينكم".

ينظر: الكسي، أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكَسّي ويقال له: الكَشّي بالفتح والإعجام، **المنتخب من مسند عبد بن حميد**، تحقيق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، (القاهرة، مكتبة السنة، ط١، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م) ص٢٧٠، وهناك روايات مختلفة منها (في جزيرتكم، جزيرة العرب).

(٣) المراد به تأخير حرمة شهر إلى آخر، وذلك أن العرب كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرًا آخر فيستحلون المحرم، ويحرمون صفرًا، فإن احتاجوا أيضًا أحلوه وحرموا ربيعا الأول، وهكذا كانوا يفعلون حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها، وكانوا يعتبرون في التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة، وربما زادوا في عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر، أو أربعة عشر، ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من السنة حرامًا أيضا، ولذلك كان يختلف وقت حجهم، قال الكلبي: أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له نعيم بن ثعلبة وكان إذا هم الناس بالصدور من الموسم يقوم فيخطب ويقول: لا مردّ لما قضيت، أنا الذي لا أعاب ولا أخاب، فيقول له المشركون: لبيك، ثم يسألونه أن ينسئهم شهرا يغزون فيه، وعن الضحاك أنه جنادة بن عوف الكناني كان يقوم على جمل في الموسم فينادي بأعلى صوته إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم يقوم في العام القابل فيقول: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه. إلخ.

ينظر: الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ) ج٥، ص٢٨٥، ٢٨٦.

(٤) قالوا في تثنية رجب وشعبان: رجبان على التغليب.

جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيُّها الناسُ:

إن لنسائكم عليكم حقًا، ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن، فإن الله قد أذِنَ لكم أن تعضلوهن، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن، وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرًا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيُّها الناسُ:

إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مالٌ إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فلا ترجعنَّ بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض؛ فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده، كتاب الله[1]، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيُّها الناسُ:

إن ربَكم واحدٌ، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمُكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. قالوا نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيُّها الناسُ:

إن الله قد قسم لكل وارث نصيبَه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية، ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحَجَرُ، من ادُعي إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله، والملائكةِ، والناس أجمعين، لا يُقبلُ منه صرفٌ، ولا عدلٌ. والسلام عليكم ورحمة الله".

سيمياء العنوان:

(١) وهناك روايات أضافت (وسنتي).

يطلق بعض الباحثين على هذا النمط من الدراسات مصطلح (بيئات النص)، وبعضهم يطلق عليها مصطلح (طبقات النص) وآخرون يطلقون عليها مصطلح (مستويات النص) وكلها مصطلحات ذات حمولات دلالية تلامس مضمون النص بطريقة أو بأخرى، حسب رؤية الباحث لمشكلة البحث، ويعرف بعض الباحثين السيمياء بأنها: "شكل تعبيري عن مضمون ثقافي معين له دلالاته"(١) ولهذا آثرت مصطلح "الحاضنات" لما للنص، ودلالاته من متعانقات حميمية، ونفسية خاصة، تمثل الدور الذي تقوم به الحاضنة الحقيقية (الأم) أو المجازية، وما توحي به كلمة حاضنة من إشعاعات وإشارات توليدية، توحي بالدفء والحنان من جهة، والتبادلية، والنماء من جهة أخرى، لنخلص في النهاية إلى ذلك التعانق المدهش بين مركبات اللفظ، ودلالاته المعنوية، وما توحي به الحاضنات النصية، وما تمثله، وتقوم به من تطوير، ونمو في مضامين النص، وانزياحاته، وإسقاطاته الفكرية، واللغوية، والصوتية، والصرفية..إلخ أما الجانب البنيوي فقد اقتصر على الاستفادة -فقط-من هذا المنهج كأداة من أدوات التحليل والتفسير بعيدًا عن الجانب الفكري.

***

(١) سالم، سافرة ناجي- **سيميائية اللغة الدرامية (بحث محكم)** -مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بغداد، ع٥٢، ٢٠٠٧م، ص٢٧٠.

المبحث الأول: الحاضنة الصوتية

قبل الشروع في هذا المبحث، وبيان جماليات الإيقاع الصوتي في الخطبة النبوية، والتناغم الذي يكسب العبارة النبوية بهاءً، وألقًا.. يجدر بنا أن نوضح أن دراسة المستوى الصوتي للنص، هو العتبة الأولى التي يلج من خلالها القارئ إلى تجاويف النص، كي يقف على أسراره، وجمالياته، ولابد من الإشارة في هذا المقام إلى أن الدرس الصوتي درس عربي أصيل، اهتم به علماء العربية، ونبهوا إلى أهميته في بناء المعنى في مواضع كثيرة من تراثنا النقدي والبلاغي، ويتقدم ذلك كله إشارات ابن جني المتميزة في هذا المجال؛ حيث يقول: "إن كثيرًا من هذه اللغة وجدته مضاهيًا بأجراس حروفه، وأصوات الأفعال التي عبر عنها، ألا تراهم قالوا: قضم في اليابس، وخضم في الرطب، وذلك لقوة القاف، وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف)[١]، ومن المعلوم أن الدراسات الصوتية ترتكز بشكل أساس على المنطوق اللغوي، الذي هو بمثابة العمود الذي تستند إليه كل الدراسات اللغوية، واللغة هي مجموعة من القواعد، والنظم التي تصف مجموعة كبيرة من الجمل، وقد عرفها ابن جني في خصائصه بقوله: "أما حدها فإنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"[٢] وما هذه الأصوات إلاّ مادّةٌ أوّليّة تستخدم في بناء الصرح اللغوي الحضاري، والنفسي، والاجتماعي لأية أمة من الأمم، وهي المكون الرئيس الذي يخلق المعنى المعجمي للكلمة، وعلى هذا فإن الإيقاعات الصوتية للكلمات ليست ترفًا، ولا حلية لفظية زائدة، فمما لا شك فيه أنّ لطبيعة أداء اللفظة، وطريقة النّطق بها، أثرًا واضحًا، ومهمًّا في صياغة المعنى، وتوجيه الدّلالة، ذلك أن "اللّغة المنطوقة هي اللّغة المثلى للمحاكاة؛ لأنّها الوحيدة القادرة على حمل التّعابير التي يريد المتكلّم أن يبلّغ عنها"[٣]، فبتلون الإيقاع، وَتعدد الأنغام، تتلون المعاني، وتتعدد الأغراض، ومن هنا كانَ للأصوات قيمتُها المعنويّةُ الّتي تلعبُ دورًا فعّالًا في تحديد دلالات الكلمات[٤].

(١) ابن جني، أبو الفتح عثمان، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار (بيروت، عالم الكتب، ط٤، د.ت) ج١، ص٦٥.

(٢) ابن جني، أبو الفتح عثمان، **الخصائص**- تحقيق: محمد علي النجار، ج١، ص٣٣.

(٣) بصل، محمّد إسماعيل، **مدخل إلى معرفة اللسانيّات** (دمشق، دار المتنبّي، د.ت.ط)، ص١١١.

(٤) أبو الفرج، محمّد أحمد، **مقدّمة لدراسة فقه اللغة**- (بيروت، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٦٩م) ص١٣٢.

ولعل ما أشار إليه أحد الباحثين بأن "ثمة فروقًا في استعمال الكلمات، مرجعها إلى نوع الكلام: فرجل العلم يسعى في أن يخلص كلامه من كل ارتباط نفسي، ولكنه بطبيعة الحال، لا يستطيع أن ينجح في هذا كل النجاح، وحتى الرياضي الذي لا يستعمل إلا الرموز الرياضية المجردة مثلًا، فإن هذه الرموز يظل لها إيقاع صوتي، ويثير هذا الإيقاع إحساسات في نفس هذا، ويثير غيرها في نفس ذاك، وقد يثير ذلك الإيقاع إحساسات مختلفة باختلاف السامعين أو القارئين"(١).

ولعل من أهم أسرار نجاح الخطيب في خطبته؛ اعتماده على ملكة التنغيم الصوتي، ثمّ فطنته في توظيف خصائص أصوات العربية للتأثير في سامعيه، وإذا أنعمنا النظر في البيان النبوي نجده "قد توخى الإيقاع المتناغم الذي يكسب العبارة جمالية محببة إلى النفس"(٢)، وقد أدرك النبي ﷺ بفطرته، وفصاحته أهمية توظيف خصائص الأصوات في التأثير المباشر على المخاطبين من خلال التنغيم؛ الذي هو ارتفاع الصوت، وانخفاضه أثناء الكلام(٣)، في حين أن النغمة هي ارتفاع الصوت في الكلمة المفردة(٤)، وقد أطلق عليه إبراهيم أنيس مصطلح موسيقى الكلام "إذ تختلف معاني الكلمات تبعًا لاختلاف درجة الصوت"(٥)، كما أسماه آخرون: "المصطلح الصوتي الدال على الارتفاع، والانخفاض في درجة الجهر في الكلام"(٦)، وفي السياق ذاته يقول الجاحظ: "والصوت هو آلة اللفظ، وهو الجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان؛ لفظًا، ولا كلامًا موزونًا، ولا منثورًا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع، والتأليف، وحسن الإشارة باليد،

(١) السعران، محمود، **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي** (القاهرة، دار الفكر العربي، ط ٢، ١٩٩٧م) ص٢٢٧.

(٢) فالح، جليل رشيد، **خطبة الوداع دراسة بلاغية تحليليّة** مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد ١٣، ص٤٠٧-٤٢٤.

(٣) ينظر: نور الدين، عصام، **علم وظائف الأصوات اللغوية الفونولوجيا**، (بيروت، دار الفكر اللبناني، ط١، ١٩٩٢م) ص١٢١، ١٢٠.

(٤) ينظر/ حسان، تمام، **مناهج البحث في اللغة** (القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٩م، د.ط) ص١٩٨.

(٥) أنيس، إبراهيم، **الأصوات اللغوية** (القاهرة، مكتبة نهضة مصر، د. ت. ط.) القاهرة، ص١٠٣.

(٦) السعران، محمود، **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي**، ص١٥٩.

والرأس"[١].

ولا شك أن التنغيم بما يختزنه من موسيقى، يخضع لحالة المتكلم النفسية، وطبيعة المخاطبين، والبيئة التي يلقى فيها الكلام، فموقف الخطابة الدينية يختلف عن التهنئة، وكلاهما، يختلف عن الرثاء، ونبراته الصوتية[٢]، وذلك بما يختزنه من شحنات دلالية، وقيم استبدالية عند الحديث عن الغرض القصدي للمتكلم، فحذف حرف النداء في قوله ﷺ: (أوصيكم عباد الله بتقوى الله– أيُها الناسُ) أسَّسَ لقيمة تعبيرية جديدة، لم تكن موجودة في النص في حال غياب التنغيم، فقد استبدل التنغيم صيغة الأمرَ الحقيقي (أوصيكم)، ونتيجة لاقترانه بـ (عباد الله) – بصيغة ذات حمولة دلالية أخرى مشحونة بالرحمة، وخفض الجناح، ما كان لها أن تظهر لولا التنغيم، كما تتجلى القيمة الاستبدالية الناتجة عن التنغيم عند حذف حرف النداء من (أيها الناس)، حيث تولد عنها سياق مشحون بالتراحم، والعطف، والحدب على المسلمين، وذلك لما يعنيه حذف الأداة من القرب النفسي بين المتكلم، والمخاطب، ولعلنا لا نجد عنتًا في التماس قيمة هذا التنغيم النبوي وما يلقيه من ظلال الرحمة، والرأفة، والحنان.. في سائر الخطبة، فهو أمر واضح وجلي، حتى في مواضع ربما ينفعل فيها الخطيب نتيجة لنشوز المرأة، وهو موضع ربما لجأ فيه الرجل إلى العنف، والحدة والضرب المؤذي، إلا أنه ﷺ بتوظيفه للتنغيم الهادئ يقول: (فإن الله قد أذِنَ لكم أن تعضلوهن، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن، وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان، لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرًا).

ولكننا نلحظ تغييرًا في نبرة صوته ﷺ عندما تعلقت المسألة بأمر يمس مفصلًا من مفاصل الدين، حينما نهى أصحابه عن الاقتتال، والفرقة، والاختلاف؛ حيث أكد على هذه القيم بالنهي المغلظ، المقرون بالفعل المؤكد بالنون الثقيلة، (فلا ترجعنَّ بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)، وهو توكيد بالنون المشددة ذات التنغيم المتردد الطويل، المنفجر في

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، ج١ ص٧٩.

(٢) ينظر/ هلال، عبد الغفار حامد، **الصوتيات اللغوية دراسة لغوية على أصوات اللغة العربية** (القاهرة، دار الكتاب الحديث، ط١، ٢٠٠٩م) ص٣١١.

نهايته. ولا شك أن كل زيادة في المبنى، تعني زيادة في المعنى والدلالة.

ومن الدلالات الصوتية -كذلك- ما ينتج عن القيمة التعبيرية للصوت المفرد في العربية، وهي ظاهرة أشار إليها ابن جني؛ حيث أشار لوجود قيم دلالية لكل صوت حرف عربي على حدة، فمن ذلك الفرق بين (أز) و(هز)؛ حيث يجمع بينهما مطلق التحريك، إلا أن الأز أشد من الهز، ويعني التحريكَ بعنف، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (١) أي: تحركهم بعنف لارتكاب الفواحش والمعاصي، بينما يقول سبحانه في شأن مريم وهي خائرة القوى عند المخاض: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ (٢)، والسبب في اختلاف معنى الأزّ عن الهز، يرجع إلى قوة صوت الهمزة على صوت الهاء الأضعف، فهو حرف ضعيف لا يكاد يظهر.

هذا ويلاحظ الدارس للخطبة تكرار حرف التوكيد (إنَ) عشرين مرة، ولا شك أن هذا التكرار في حد ذاته قد أفاد حرصه عليه السلام على أمته قبل وفاته سواء بفعل ما أمروا بفعله، أو ترك ما نهوا عنه، ولكن ما يعنينا في هذه الدراسة هو الإسقاطات الصوتية لحرف التوكيد (إنَ) الذي يبدأ بالهمزة، فالهمزة صوت مجهور(٣) انفجاري وقوي-كما في (أز)- ولعله أكثر مناسبة في سياقات الأمر بفعل الشيء، أو النهي عن فعله، وكذلك النون التي جاءت هنا مشددة بما فيها من طول الغنة قبل انتهاء التشديد، حتى إذا ما انتهى التشديد حدث صوت انفجاري، بسقوط اللسان من سقف الحنك مرة واحدة، والنون كذلك صوت مجهور أغن(٤) وهنا يكون قد اجتمع في حرف واحد (إنَّ) صوتان مجهوران متواليان؛ ولعل هذه الصفات الصوتية مجتمعة تشي بالكثير من الدلالات المعنوية المناسبة لاستخدام هذا الحرف في حالتي الأمر أو النهي.

من الظواهر الصوتية في خطبة الوداع ما اصطلح عليه بـ (المماثلة أو التأثر)، في قوله

(١) سورة مريم: الآية ٨٣.

(٢)سورة مريم: الآية ٢٥.

(٣) ابن جني، أبو الفتح عثمان، **سر صناعة الإعراب**، تحقيق: د.حسين هنداوي (دمشق، دار القلم، ط١، ١٩٨٥م) ج١، ص٦٩، باب الهمزة.

(٤) ابن جني، أبو الفتح عثمان، **سر صناعة الإعراب**، تحقيق: د.حسين هنداوي، ج٢، ص٤٣٥. باب النون.

عليه السلام (من ادُعي إلى غير أبيه..) فصياغة (افتعل) من ادعي (ادتعى)؛ فاجتمع هنا صوتان متجاوران؛ الأول مجهور (الدال)، والثاني مهموس (التاء)، فتأثر الثاني بالأول، وانقلب إلى صوت مجهور ليجتمع صوتان مجهوران (ادَّعى)، فالتاء المهموسة حين يجهر بها تصير (دالًا) وهنا يتم فناؤهما معًا، ويحصل هذا الأمر كنتيجة طبيعية للتجاور بين الأصوات، فقد ينقلب الصوت من الجهر إلى الهمس، أو العكس(١)، فالأصوات تتفاعل مع بعضها لتحقق الانسجام الصوتي؛ فينتج عن هذا التفاعل بعض الظواهر الصوتية، منها على سبيل المثال: الإدغام، والإبدال، والإمالة، والنبر، والتنغيم، والإتباع، والإشباع والمقاطع الصوتية... إلخ، وسيقف الباحث عند ظاهرتين صوتيّتين تلمَّسَهما في خطبة حجة الوداع، وهما من سنن العرب في كلامها:

١- المقطع الصوتي.

٢- الإدغام.

أولًا- المقطع الصوتي: فلكل لغةٍ من لغات البشر نظام صوتيّ معيّن، وهذا النظام يتكون من مجموعةٍ من الأصوات التي لا يمكن أن تُستخدم بشكل منفرد؛ بل تتداخل وتتآلف فيما بينها لتكون كلمات، والكلمات ينضم إلى بعضها وتكوّن جُملًا ذات معنىً، فلكل لغة أنظمتُها المتعددة و"نظامها الأصواتي الموزع توزيعًا لا يتعارض فيه صوت مع صوت، ولها نظامها التشكيليّ، الذي لا يتعارض فيه موقع مع موقع... ولها بعد ذلك نظام للمقاطع، ونظام للنبر ونظام للتنغيم(٢) وسنختار بعضًا من الفقرات أو الجمل؛ كنماذج من خطبة حجة الوداع؛ لتبين نوع المقاطع الصوتيّة التي غلبت عليها الخطبة.

أما أنواع المقاطع الصوتية في علم اللغة فهي:

١- مقطع قصير: والتعبير المقطعي عنه، (ص ح)، مثل: (أَ).

٢- مقطع متوسط مفتوح: والتعبير المقطعي عنه، (ص ح ح)، مثل: (ما)

٣- مقطع متوسط مغلق: والتعبير المقطعي عنه، (ص ح ص)، مثل: (قَدْ).

(١) أنيس، إبراهيم، **الأصوات اللغوية**، ص١٠٩-١١١ (بتصرف).

(٢) حسان، تمام، **مناهج البحث في اللغة** (د. ت. ط. ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية)، ص٥٨.

٤- مقطع طويل مغلق بصامت: والتعبير المقطعي عنه، (ص ح ح ص)، مثل: (مين) من كلمة "العالمين".

٥- مقطع طويل مغلق بصامتين: والتعبير المقطعي عنه، (ص ح ص ص)، مثل: (خَوْفْ).

النماذج:

- أوصيكم عبادَ الله بتقوى اللهْ، وأحثُّكم على طاعتِهْ:

ص ح ص/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح ح/ ص
ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/
ص ح ص/ ص ح / ص ح ح/ ص ح ح/ ص ح/ ص ح ص.

- أيها الناسْ: اسمعوا منّي أبيّن لكمْ.

ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ح ص/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ح/ ص
ح ص/ ص ح ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص.

- إنَّ دماءكم وأعراضكم حرامٌ عليكم إلى أن تلقوا ربَّكم؛ كحُرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص
ح ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح
ص/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح
ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ح/ ص
ح ح/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ح/ ص ح ح/ ص ح ح/ ص
ح/ ص ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ح/ ص ح ح.

- إن ربَّكم واحدْ، وإنَّ أباكم واحدْ، كلُّكم لآدمْ، وآدمُ من تراب.

ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح/
ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح ص/
ص ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح/ ص ح/

ص ح ص/ ص+ ح/ ص ح ح ص.

– ليْس لعربيٍّ على عجميٍّ فضلٌ إلّا بالتقوى.

ص ح ص/ ص ح/ ص ح/ ص ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح/ ص ح ح/ ص ح/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ح/ ص ح ص/ ص ح ص/ ص ح ح.

من الملاحظ من خلال الخطبة أنها تكاد تنحصر بين المقاطع الصوتية المتوسطة المغلقة والقصيرة؛ التي تدلُّ على السرعة والشِّدة أحيانًا، ولعلنا نفسر هذه الظاهرة بما يتناسب وطبيعة الإسلام الوسطي من جهة، ودقة اللغة العربية وحرصها على الإيجاز، بما يحمله من دلالات تفيد سرعة توصيل المعنى للمخاطب دون إطناب، أو ثرثرة، وقد قيل قديمًا (البلاغة الإيجاز)، واللغة العربية تميل بطبيعتها إلى المقاطع الساكنة؛ أي التي تنتهي بصوت ساكن، ويقلُّ فيها توالي المقاطع المتحركة، وبخاصة حين يشتمل على الحركة القصيرة..

ثانيًا– الإدغام: يلفظ بتشديد الدال وتخفيفها[١]، ومعناه لغةً: الإدخال، قال الجوهريُّ: "أدغمَت الفرس اللجام، إذا أدخلته في فيه، ومنه إدغام الحروف، يقال: أدغمت الحروف، وأدغمته على افتعلته"[٢].

أما اصطلاحًا فهو: "الإتيان بحرفين: ساكن، فمتحرك، من مخرج واحد، بلا فصل بينهما، بحيث ينطق بها المتكلم دفعة واحدة"[٣]، هذا وفق تعبير القدماء، أما المحدثون فقد أطلقوا عليه مصطلح: Complete Assimilation؛ أي المماثلة الكاملة[٤]، وقد وقع إدغام المتقاربين في خطبة حجة الوداع للنبيّ ﷺ في الألفاظ الآتية:

(١) بتشديد الدال لفظ البصريين، أما بتخفيفها فلفظ الكوفيين.

ينظر/ الخضري، محمد بن مصطفى، **حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك** (د.ت.ط دمشق، دار الفكر) ج٢، ص٢١٠.

(٢) الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، **مختار الصِّحاح**– تحقيق: يوسف الشيخ محمد،(بيروت، صيدا، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، ط٥، ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م) ص١٠٥، مادة (دغم).

(٣) الخضري، محمد بن مصطفى،**حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، ج٢، ص٢١٠.

(٤) عمر، أحمد مختار، **دراسة الصوت اللغوي**، (القاهرة، عالم الكتب ط١٩٩٧م) ص٣٨٧.

التَّقوى- الزَّمان- السّدانة - السّقاية- السّلام- السّماوات- الشّاهد- الشّهور- الشّيطان- النَّاس- النِّساء- النَّسيء.

تتفق هذه الكلمات في أنها أدغمت لام المعرفة فيها؛ وهذا ما جعل البعض يطلق على الإدغام مع هذه الحروف الإدغامَ الشمسيَّ(١).

وتدغم لام المعرفة "في ثلاثة عشر حرفًا لا يجوز فيها معهنّ إلا الإدغام؛ لكثرة لام المعرفة في الكلام؛ وكثرة موافقتها لهذه الحروف؛ واللام من طرف اللسان، وهذه الحروف أحد عشر حرفًا؛ منها حروف طرف اللسان، وحرفان يخالطان طرف اللسان، والأحد عشر حرفًا: النون، والراء، والدال، والتاء، والصاد، الطاء، والزاي، والسين، والظاء، والثاء، والذال، واللذان خالطاها: الضاد والشين؛ لأن الضاد استطالت لرخاوتها حتى اتصلت بمخرج اللام، والشين كذلك حتى اتصلت بمخرج الطاء"(٢)؛ فاللام: "صوت جانبي مجهور، ينطق بأن يتصل طرف اللسان باللثة، ويرتفع الطبق فيسد المجرى الأنفي عن طريق اتصاله بالجدار الخلفي في الحلق، هذا مع حدوث ذبذبة في الأوتار الصوتية"(٣).

١- الإدغام في كلمة (التّقوى): قبل أن تدغم اللام في التاء تقلب اللام تاءً، فيجتمع حرفان متماثلان: تاء ساكنة وأخرى متحركة، فيتحقق شرط الإدغام، فتدغم التاء في التاء، والذي سوّغ هذا الإدغام تقارب اللام، والتاء في المخرج؛ فالتاء "صوت أسناني لثوي انفجاري مهموس مرقق، ويتم نطقه بأن يلتصق طرف اللسان بأصول الأسنان العليا، واللثة التصاقًا تامًّا، ويمنع مرور الهواء فترة من الزمن، ثم ما يلبث السدُّ أن يزول فجأةً فيخرج الهواء منفجرًا، وتضيق المسافة بين الوترين الصوتيَّين ضيقًا يسمح بمرور الهواء، ولا يتذبذب الوتران الصوتيّان، ويخرج الصوت مهموسًا، وتنخفض مؤخرة اللسان بعيدًا عن الطبق، فتضيق غرفة

(١) المصري، عبد الفتاح بن السيد عجمي بن السيد العسس المرصفي، **هداية القاري إلى تجويد كلام الباري** (المدينة المنورة، مكتبة طيبة، ط٢، د.ت) ج١ص٢٤٠.

(٢) سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م) ج٤، ص٤٥٧.

(٣) عبد التواب، رمضان، **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللُّغوي**، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤١٧هـ=١٩٩٧م) ص٤٧.

الرنين ويخرج الصوت مرققًا، ويرتفع الطبق نحو الجدار الخلفي للحلق، فينسد التجويف الأنفي، وينفتح التجويف، الفموي ويخرج هواء صوت التاء من خلال الفم"[١].

٢- الإدغام في كلمة (الزّمان): قبل أن تدغم اللام في الزاي، تقلب اللام زايًا، فيجتمع حرفان متماثلان، زايٌ ساكنة وأخرى متحركة، فيتحقق شرط الإدغام، فتدغم الزاي في الزاي، والذي سوّغ هذا الإدغام تقارب اللام والزاي في المخرج، فالزاي صوت أسناني لثوى احتكاكي مجهور مرقق، "ينطق بوضع طرف اللسان في اتجاه الأسنان، ومقدمته مقابل اللثة العليا، مع رفع الطبق تجاه الحائط الخلفي للحلق، فيسد المجرى الأنفي، ويتم كل هذا مع وجود ذبذبة في الأوتار الصوتية"[٢].

٣- الإدغام في الكلمات (السِّدانة- السِّقاية - السِّلام- السِّماوات): قبل أن تدغم اللام في السِّين، تقلب اللامُ سينًا فيجتمع متماثلان، الأول ساكن والثاني متحرك، فتدغم السين الأولى في الثانية، والذي سوّغ هذا الإدغام تقارب اللام، والسين في المخرج، فالسين صوت أسناني لثوى احتكاكي مهموس مرقق، "ينطق بوضع طرف اللسان بحيث يلتصق بالأسنان السفلى، ومقدمته باللثة، مع رفع الطبق بحيث يلتصق بالجدار الخلفي للحلق، فيسد المجرى الأنفي في طريق الهواء الخارج من الرئتين، ثم مع خفض مؤخرة اللسان وفتح الأوتار الصوتية في وضع التنفس المهموس"[٣].

٤- الإدغام في الكلمات (الشّاهد- الشّهور- الشّيطان): قبل أن تدغم اللام في الشّين، تقلب شينًا فيجتمع متماثلان، الأول ساكن، والثاني متحرك، فتدغم الشين الأولى في الثانية، والذي سوّغ هذا الإدغام تقارب اللام والشين في المخرج، أما الشين فهي صوت رخو مهموس مرقق، ينطق برفع مقدمة اللسان تجاه الغار، ورفع الطبق ليسد المجرى الأنفي، بالتصاقه بالجدار الخلفي للحلق، ويتم ذلك كلُّه، دون إحداث ذبذبات في الأوتار الصوتية[٤].

(١) البهنساوي، حسام، **علم الأصوات**، (القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م) ص٦٧.
(٢) عبد التواب، رمضان، **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللُّغوي**، ط٣، ص٤٧.
(٣) البهنساوي، حسام، **علم الأصوات**، ط١، ص٧٠.
(٤) عبد التواب، رمضان-**المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللُّغوي**- ط٣، ص٥٠.

٥- الإدغام في كلمات (النّاس- النّساء- النّسيء): قبل أن تدغم اللام في النون تقلب نونًا؛ فيجتمع متماثلان، الأول ساكن، والثاني متحرك، فتدغم النون الأولى في الثانية، والذي سوّغ هذا الإدغام تقارب اللام النون في المخرج؛ فمخرج النون "من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان، وما بينهما وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الثنايا"(١)، فالنون صوت أنفي مجهور يتم نطقه بجعل طرف اللسان متصلًا باللثة، مع خفض الطبق ليفتح المجرى الأنفي، وإحداث ذبذبة في الأوتار الصوتية"(٢). وإذا ما عدننا إلى خطبة الوداع فسنرى ذلك التناسب العجيب بين الحرف، ودلالاته الصوتية، فقد كرر ﷺ (أيها)، (الناس)، لما في الأولى من قوة تأثير في السامع، لابتدائها بصوت (الهمزة) ذات الجرس القوي، الذي وصفه العلماء بالشديد المجهور(٣)، وذلك يتناسب مع مقام شد الانتباه، وجذب الأسماع، والأفهام للمتكلم. أما (الناس): فلعل أهم ما يلفت النظر في هذه اللفظة هو صوت الألف الممدودة، والتي وافقت مدلول الكلمة ذاتها، فقد اختارها النبي ﷺ بدلًا عن (المسلمين، أو المؤمنين)، لشمولها كل الجنس البشري، فجاء صوت الألف الممدودة ليعبر عن ذلك الامتداد الموغل في أعماق الزمن الماضي، والمستقبل على السواء، وقد تجسدت تلك المدود كلها في المقطع ما قبل الأخير من الخطبة: (إن ربَكم واحدٌ، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب..)، وهذا فيه ما فيه من شمول الدعوة، وعالميتها.

(١) سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج٤، ص٤٣٣.

(٢) عبد التواب، رمضان، **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللُّغوي**، ط٣، ص٤٩.

(٣) ينظر/ بشر، كمال، **دراسات في علم اللغة**، (د.ت.ط، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع) ص٦١.

المبحث الثاني: حاضنة معمارية اللغة

لعل أول ما يطل علينا في هذا النص النبوي الشريف من ظواهر لغوية هو استهلاله عليه السلام خطبته بحمد الله عز وجل، والثناء عليه، فقد التزم الخطباء المسلمون في خطبهم نهجًا ثابتًا على الأغلب؛ حيث تبدأ "بحمد الله وتستفتح بالتمجيد، وتُزيّن بالصلاة على النبي ﷺ"(١)، ذلك أن "الابتداء أول ما يقع في السمع من كلامك، والمقطع آخر ما يبقى في النفس من قولك، فينبغي أن يكونا جميعًا مونقين"(٢). وعلى هذا فإن "كان الابتداء حسنًا بديعًا، ومليحًا رشيقًا، كان داعية إلى الاستماع لما يجيء من الكلام؛ ولهذا جُعل أكثر الابتداءات بالحمد لله(٣)؛ لأن النفوس تتشوف للثناء على الله، فهو داعية إلى الاستماع.."(٤) وقد نوه النبي ﷺ إلى أهمية جمال الاستهلال فقال: ﴿كُلُّ كَلَامٍ، أَوْ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُفْتَحُ بِذِكْرِ اللهِ، فَهُوَ أَبْتَرُ﴾(٥)، وفي هذا السياق تحدث القلقشندي في (صبحه) عن مراتب الابتداء، والاستهلال، فجعل أعلاها الاستهلال بحمد لله، يليها الاستهلال بـ (أما بعد)، وأن الاستهلال بـ (أما بعد) أحسن من الاستهلال بـ (بعدُ) (٦)، وليس من المستحسن تكرار هذه الصيغة أكثر من مرة واحدة في الخطبة الواحدة، وقد أتى النبي ﷺ بأحسن الاستهلالين في خطبته، ولم يذكره أكثر من مرة واحدة. وعلى هذا فالبدء في كل شيء من الممكن أن يسمى استهلالًا، يتناسب مع ما يبدأ به مُفتَتِحًا، "فتحسين الاستهلالات، والمطالع من أحسن شيء في هذه الصناعة؛ إذ هي الطليعة الدالة على ما بعدها، تزيد النفس بحسنها ابتهاجا

(١) ينظر: أبو علي، نبيل، **نقد النثر في تراث العرب النقدي**، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط ١٩٩٣) ص٢٣٤.

(٢) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، **الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت، المكتبة العصرية، د.ط، ١٤١٩هـ) ص٤٣٥.

(٣) وقد ذكر القلقشندي في صبحه أنواعًا من الاستهلالات، منها: الابتداء بالتحميد، الابتداء بالتقبيل، الابتداء بالدعاء، ينظر: القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.ط) ج٦، ص٢٦٦.

(٤) العسكري، أبو هلال، **الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص٤٣٧.

(٥) ابن حنبل، أحمد بن محمد، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (دار الحديث – القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ =١٩٩٥م)، باب: صحيفة همام بن منبه، رقم الحديث: ٨٦٩٧، ج٨، ص٣٩٥.

(٦) القلقشندي، أحمد بن علي، **صبح الأعشى**، ج١٢، ص٢٧٦.

ونشاطا"[١]، وقد نبه أبو هلال العسكري في الصناعتين إلى هذا الأمر فقال: "أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات، فإنهن دلائل البيان"[٢]، وليس غريبًا أن "تكتسب بدايات الكلام أهميتها بوصفها انحرافًا عن صمت، أو فراغ، وتعد هذه البدايات تأسيسًا لمتوالية من المعاني، التي تعلن في اكتمالها الأخير ولادة نظام ما[٣]، وانطلاقًا من هذه السياقات، وهذه المفاهيم المؤسِّسَةِ.. فهل كان النبي ﷺ هو أول من حمد الله ﷻ في خطبه؟ وهل كان هذا الاستهلال استهلالًا نبويًا محضًا، أم أن خطباء العرب كانوا قد سبقوا في هذا السياق؟. في الحقيقة.. فقد كان هذا الاستهلال استهلالًا نبويًا خالصًا، لم يسبقه إليه خطيب، سوى عمه أبي طالب في زواج النبي ﷺ من خديجة بنت خويلد[٤]، فقد كان ﷺ أول من سن هذه السنة، حتى صارت ظاهرة تحتذى، فقد قال ابن قتيبة في عيون الأخبار: "تتبعت خطب رسول الله فوجدت أوائل أكثرها الحمد لله نحمده ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه، ونستغفره ونتوب إليه...، ووجدت في بعضها أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، ووجدت كل خطبة مفتاحها الحمد، إلا خطبة العيد فإن مفتاحها التكبير"[٥]، وكيف لا يبتدئ النبي ﷺ خطبته بهذه البداية المجللة بالتمجيد، والتنزيه للخالق ﷻ، وقد كان له في كتاب ربه ﷻ خير مثال[٦].

وبعد هذا التحميد، والتنزيه يتوجه النبي ﷺ إلى الهدف المباشر من خطبته، فهو يريد توجيه الأمة لما فيه الخير، والسداد، والنجاة من النيران، فيستخدم في سبيل ذلك أفعال الأمر: (أوصيكم، أحثكم، اسمعوا) (أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير، اسمعوا مني أبينْ)، فهل كان عليه السلام يقصد إلى الأمر قصدًا؟ وهل

(١) القرطاجني، حازم بن محمد بن حسن، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة (بيروت، د.ت،ط، دار الغرب الإسلامي) ج١، ص٣٠٩.

(٢) العسكري، أبو هلال، **الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص٤٣١.

(٣) منير، وليد-**النص القرآني من الجملة إلى العالم**-(القاهرة، المعهد العالي للفكر الإسلامي، ط١، ١٩٩٧م) ص٧٩.

(٤) ينظر/ صفوت، أحمد زكي، **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**، (د. ط، ت، بيروت، المكتبة العلمية) ج١، ص٧٧.

(٥) صفوت، أحمد زكي، **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**، ج٣، ٣٦١.

(٦) فقد كرر الحمد بلفظ الحمد في القرآن الكريم ثلاثًا وعشرين مرة.

كان الأمر حقيقيًا؟ أم مجازيًا؟، وفي سبيل تجلية الأمر.. ينبغي علينا تحديد مدلول هذا الأمر، فالأمر الحقيقي كما يقول القزويني على لسان السكاكي: "..ثم الأمر حقه الفور"(١) والتنفيذ في الحال لسببين:

الأول: لأنه الظاهر من الطلب.

الثاني: لتبادر الفهم عند الأمر بشيء، بعد الأمر بخلافه، إلى تغيير الأمر الأول"(٢)، وهذا ما لم يتحقق في الخطبة.

أما صيغة الأمر المجازي "فقد تستعمل في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام"(٣)، والراجح أن الأمر في هذا السياق –محل الدراسة –هو من قبيل الأمر المجازي؛ لأنه لا يمكن الجمع بين ما قدم به النبيﷺ من استهلال رقيق، ولجوء دافئ، منكسر إلى ربه ﷻ، وبين الأمر بانزياحاته الجافة، والمباشرة، فلا يسوغ أن يحمل الخطاب النبوي في تضاعيفه معاني التودد، والتلطف، ثم يبعثه مباشرة بما يدل على الأمر، خشية أن يقع ذلك من النفوس موقعًا لا يرتضيه السامعون، ولما يحصل من التفاوت بين الرقة، والتلطف من جهة، وبين الشدة التي يحملها الأمر الحقيقي من جهة أخرى، على الرغم من أنه ﷺ كان بإمكانه أن يأمر فيطاع في الحال وعلى الفور، إلا إنه –وهو الذي لا ينطق عن الهوى– أرفع مكانة، وأسمى ذروة من أن يكون عيَّ البيان، لا يراعي التناسب بين اللفظ والمعنى وحال المخاطبين؛ لذا فإن المعنى المجازي لصيغة الأمر في هذا السياق يأتي في إطار لفت أنظار الصحابة –رضوان الله عليهم– ، وتوجيههم، وتنبيههم إلى ما سوف يعرضه عليهم من أمور، ومما يعزز هذه المجازية قوله ﷺ: (فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا) وهي عبارة تتسم بالانسيابية، والهدوء، والتنغيم الخافت، عبارة نسجت في سياق المودع لأصحابه، ومن يكون هذا شأنه، فلا شك أنه سيبتعد كل البعد عن الأوامر بعدولها الفج، وانزياحاتها الجافة، التي تحمل بين جنباتها صفة، القوة، والشدة، والاستعلاء.

(١) يعني واجب التنفيذ في الحال.

(٢) القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: بهيج الغزاوي، (بيروت، دار إحياء العلوم، ط٤، ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م) ج١، ص١٤٣.

(٣) المرجع نفسه: ج١، ص١٤١، ١٤٢.

ومن الانزياحات اللغوية البارزة في خطبة الوداع، التوكيد بـ (إنَّ)، والترجي (بلعل)، في قوله ﷺ: (فإني لا أدري[1] لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا). فكيف اجتمع الضدان في سياق واحد، فـ (إنَّ) أداة توكيد، وردت في سياق الخطبة للدلالة على توكيد مضمون الجملة، ألم يكن من المتوقع أن يقول (لعلي لا ألقاكم..)، ولو قال ذلك لخرج عليه السلام من الحرج الناتج عن الجزم، والوكيد بـ (إنَّ)، ولكن الواقع أن النبي ﷺ لم يفعل ذلك، وإنما أكد النفي، أي أنه أكد نفي علمه بموعد لقاء ربه، فالجوُّ العامُّ للخطبة من أولها إلى آخرها يوحي بالوداع، وأن هذا هو اللقاءَ الأخيرَ مع عموم الأمة، وأنه وإن كان نبيًّا يوحى إليه؛ إلا إنه أراد أن يثبت للناس بشريته، وأنه -نفسه- لا يعلم متى يلقى ربه ﷻ، ولهذا جاء النبي عليه السلام بأداة التوكيد (إنَّ) ليقرر في-مقام التعليم، والتوجيه- هذه العقيدة الراسخة، وهذا المفهوم الغيبي، الإيماني في نفوس الأمة، وخصوصًا في اللقاء الأخير بينه، وبين رعيته.

ومن اللطائف اللغوية لـ (إنَّ) المؤكدة، ما قاله الزملكاني في برهانه من مجيء (إنَّ) لل "ربط بين جملتين، لتوصل أحداهما بالأخرى، فتراهما بعد دخولها كأنهما قد أفرغتا في قالب واحد"[2]، كما يشير الزملكاني إلى إمكانية أن تحل الفاء، محل (إنَّ)، ويستقيم المعنى، إلا إن (الفاء) لا تقوم بما تقوم به (إنَّ) من توكيد، وتقرير، وامتزاج[3]، وقد حرص النبي عليه السلام على تقسيم الخطبة إلى مقاطع مترادفة، تؤدي الغرض المنشود، إذْ إنّ من فطنة الخطيب "أن يختار المقاطع التي يقف عليها؛ بحيث يكون وقوفه عند نهاية جزء تامٍّ من المعنى الذي يريده، وبأنْ يكون المقطع ذا رنينٍ قوي، يملأ النفس، ويوجهها نحو الغرض الذي يريده الخطيب"[4].

(١) "الدِّرَايَة فِي مَا قَالَ أَبُو بكر الزبيرِي بِمَعْنى الْفَهم، وَهُوَ لنفي السَّهْو عَمَّا يرد على الانسان.
ينظر: العسكري، أبو هلال، **الفروق اللغوية**، تحقيق: محمد إبراهيم سليم (القاهرة، د.ت.ط، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع) ص٩١.
وأَن الْعلم هُوَ اعْتِقَاد الشَّيْء على مَا هُوَ بِهِ على سبل الثِّقَة وَالْيَقِين يوجد فرق في اللغة بين العلم والمعرفة، ذلك أن المعرفة يسبقها جهل والعلم لا يسبقه جهل، فإذا قلت: يعرف الله، فلازم ذلك أن يكون الله جاهلًا ثم عرف.

(٢) الزملكاني، كمال الدين، **البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن**، تحقيق: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي (رئاسة ديوان الأوقاف، إحياء التراث الإسلامي، د.ت،ط) ص١٥٦.

(٣) ينظر: المرجع نفسه: ص١٦٥.

(٤) أبو زهرة، محمد-**الخطابة أصولها. تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، القاهرة**، دار الفكر العربي، د.ت.ط). ص١٠٩.

ومن الظواهر اللغوية البارزة في هذه الخطبة ظاهرة التناص القرآني، وهي خاصية طبيعية، وتتناسب تناسبًا منطقيًا مع مقام النبوة الشريفة، تمثل ذلك في قوله ﷺ: (إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مالٌ إلا عن طيب نفس منه)، وهو تناص شبه تام، ولا يخفى أنه تناص مع قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(١)، وقوله ﷺ: (..وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله، يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد) وهو تناص شبه تام مع قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ (٢)، ومنه قوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓـُٔ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ (٣)، وهو تناص تام.

وهناك تناص ناقص، (معنوي) تمثل في قوله ﷺ: (ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن، فإن الله قد أذِنَ لكم أن تعضلوهن، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن، وكسوتهن بالمعروف)، وهو تناص مع قوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ (٤)، كما أنه تناص مقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (٥).

ومن الطائف اللغوية الأسلوبية استخدامه ﷺ أسلوب القصر في مواقع مختلفة من الخطبة، فالأصل في (إنما): أن تستعمل في حكم لا يعوزك تحقيقه، إما لأنه في نفس الأمر جلي، أو لأنك تدعيه جليًّا(٦) كأن تقول للمشرك: إنما الله إله واحد، وقد قيل إن القصر

(١) سورة الحجرات: ١٠
(٢) سورة التوبة: الأية ٣٦.
(٣) سورة التوبة: الأية ٣٧.
(٤) سورة النساء: الأية ١٩.
(٥) سورة النساء: الأية ٣٤.
(٦) السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، **مفتاح العلوم**، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، (بيروت، دار الكتب =

إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه[١]، كما قيل: هو تكثير المعنى بتقليل اللفظ[٢] وذلك لتوكيد مضمون الجملة، وقد تجلى ذلك في أول ما فعله النبي ﷺ عند وصوله للمدينة المنورة؛ حيث آخى بين المهاجرين والأنصار، فقال ﷺ في خطبته: (إنما المؤمنون إخوة) كما قال ﷺ: (وإنما النساء عندكم عوان)، (إنما النسيء زيادة في الكفر)، وهي كلها أساليب لا يرقى الشك إلى أي منها كما سبق ذكره.

المبحث الثالث: الحاضنة الدلالية

الحاضنة الدلالية هي تعبير غير مباشر عن الفكرة المراد توصيلها للمستمع؛ حيث تتداخل الصور في تجاويف النص، لتصبح مكونًا رئيسًا من مكونات نسيجه، وتأتي الصور النبوية لتصيب عمود النص، وتزيد من أثره الوهاج عند المتلقي والمخاطب، لذا فإن "دراسة الصياغة، ودلائل التراكيب، ينبغي أن تكون مقدمة لدراسة كل صورة من صور البيان"[٣]؛ لأنّ من أسرار الصور البيانية ما يتصل بالنَّظْمِ وطريقة التركيب.

ويشترك مطلع الخطبة مع خاتمتها في رسم الجو النفسي العام للنص، فمن الدلالات الحانية التي تناسب المقام؛ مقام الرحمة، والحدب، والإرشاد، والتعليم، والوداع أيضًا؛ أنه عليه السلام قد ختم المقطع الأول بما يطمئن النفس، ويبعث على البِشْرِ، والتفاؤل، فقال: (وأستفتح بالذي هو خير)، وهو ما يبعث في النفس الراحة، والأمان، كما أنه ختم خطبته عليه السلام بما يبعث في النفس الراحة، والأمان كذلك، فقال: (والسلام عليكم ورحمة الله)، وهي أساليب مقصودة لذاتها عند مقام النبوة، والإرشاد بشكل عام، وفي هذا المقام بشكل خاص.

ومن الدلالات ذات البعد الإنساني في خطبة الوداع؛ أنه عليه السلام فرق في خطابه بين الرجال والنساء، فخاطب كل جنس بما يناسبه، رأينا ذلك في مقام الحديث عن حقوق كل

=

العلمية، ط٢، ١٤٠٧هـ=١٩٨٧م) ص٢٩٤، ٢٩٥، ١٣٢.

(١) السيوطي، جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٣، ص١٩٢.

(٢) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، **معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى: إعجاز القرآن ومعترك الأقران**، د. تح، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م) ج١، ص٢٢٣.

(٣) أبو موسى، محمد، **التصوير البياني**، (القاهرة، مكتبة وهبة، ط٥، ٢٠٠٤م) ص٧٠.

منهما، فالمرأة ضعيفة، مستضعفة، وهي بحاجة إلى الحدب، والعطف، والحنان..، لذا فقد بدأ بحقها أولًا، مؤكدًا ذلك الحق (بإنَّ)، وهو حرف شديد التوكيد، ولئن قسمت الغنة إلى كاملة، وأكمل، وضعيفة، وأضعف، فإنَّ غنة النون المشددة هي الأكمل؛ حيث قال ﷺ: (إنَّ لنسائكم عليكم حقًا)، ثم أتبع هذا التوكيد بلام الملكية (لنسائكم)، فهذا الحق ملك للمرأة شرعًا، مما يوحي بحرص الإسلام على حقوق المرأة كاملة غير منقوصة، بينما اختلف الخطاب عندما تعلق الأمر بالرجال، فلم يؤكد حقوقهم على النساء بأي من المؤكدات؛ لأن الرجل يتمتع بمعادل القوة، والقوامة؛ حيث يقول: (ولكم عليهن حق) وهي جملة خالية من المؤكدات سوى عامل الابتداء، وقد وظف ﷺ التوكيد (بإنَّ) في أكثر من موضع من المواضع التي تحتاج إلى حسم، وشدة، ومفاصلة، نرى ذلك في سياق ترسيخه ﷺ لعقيدة التوحيد، ولمبدأ الأخوة بين المسلمين، وتوزيع التركة... (إنَّ ربَكم واحدٌ، وإنَّ أباكم واحد- إنَّما المؤمنون إخوة- إنَّ الله قد قسم لكل وارث نصيبَه من الميراث)، وهي مؤكدات تحمل شحنات دلالية خطيرة من الناحية العقدية، والاجتماعية معًا.

وإذا ما انتقلنا للحديث عن التكرار كظاهرة لها دلالاتها المعنوية، وإسقاطاتها النفسية، فإننا سنجد لها جذورًا أصيلة في الثقافة العربية؛ فهو أسلوب تعبيري استخدمه العرب في كلامهم لغايات فنية، ونفسية متعددة، وهو "الإتيان بعناصر متماثلة في مواضع مختلفة من العمل الفنّي، وهو أساس الإيقاع بجميع صوره"(١) كما تحدث ابن فارس عن هذه الظاهرة باعتبارها ظاهرة ثقافية طبيعية عند العرب حيث يقول: "ومن سنن العرب التكرير، والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر"(٢) كما استعمله النبي ﷺ، وجعله وسيلة من وسائل الدعوة، وطريقة من طرائق التبليغ، فكرر الحرف، والكلمة، والعبارة، كل ذلك لتحقيق أهداف معينة، كتأكيد المعنى، أو التحذير منه، أو الترغيب فيه، أو الوعيد، والتهديد، أو لزيادة التنبيه، أو للتهويل، أو للتعظيم، أو للإشعار بأهمية المكرر، وإعظام شأنه..، كما يأتي

(١) عمر، أحمد مختار عبد الحميد، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، (القاهرة، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م) ج٣، ص١٩١٩.

(٢) القزويني الرازي، أحمد بن فارس بن زكرياء، **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**- (بيروت، دار الكتب العلمية، د.تح، ط١، ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م) ص١٥٨.

التكرار "استدعاءً لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل"(١) كما يشير-كذلك- إلى القيمة الفنية، والمعنوية الكامنة في هذه الظاهرة، ولهذا يرى السيوطي-رحمه الله- بأنه: "أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة، خلافًا لبعض من غلط"(٢)، فظن أن التكرار عجز، وعي، وضعف، ويبين الجاحظ أن التكرار دليل علم وفضل، وأن افتقار الكاتب إليه يعد منقصة ومثلبة وذمًّا، فإن "الناس لو استغنوا عن التكرير.. لقل اعتبارهم، ومن قل اعتباره قل علمه، ومن قل علمه قل فضله، ومن قل فضله كثر نقصه، ومن قل علمه، وفضله، وكثر نقصه، لم يحمد على خير أتاه، ولم يذم على شر جناه"(٣).

وبما أن المقام مقام رحمة، ووعظ، وإرشاد، ووداع..، فها هو ﷺ يستحضر قول المولى تبارك وتعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (٤)، فلم يكن ﷺ جبارًا، ولا لعانًا، ولا بذيئًا، ولا فاحشًا... ولذا راح يرسم بأصوات كلماته دلالات الرحمة، والشفقة، والحنان، من خلال ذلك النداء الحاني (أيها الناس)، هذا النداء الذي تكرر ثماني مرات في هذه الخطبة، والذي يأخذ دلالاته من السياق العام للخطاب، أو ما يعرف بنظرية النظم عند عبد القاهر؛ حيث يتم استثمار هذه النظرية في ذلك التعانق التكاملي بين اللفظ، وما يمكن أن يشع به من دلالات، ومعان..، وبين العدول، وتعدد المعاني، وتجددها بتجدد السياق ذاته، مما يتولد عنه معانٍ أخرى متعددة، وكثيرة، تتعدد بتعدد السياقات- وهو ما يُلمسُ عند سماع ذلك النداء الإنساني الذي يشع رحمة، وحنانًا، وتجسده عالمية الخطاب النبوي، وإشعاعاته المطلقة، وغير المحدودة، نلمس تلك الدلالات من خلال القرب الناجم عن حذف أداة النداء، مما يشعر بالقرب المكاني، والمعنوي بين المتكلم، والمخاطب.

(١) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (بيروت، دار الكتب العلمية، د.تح، ط٣، ١٤٠٧هـ) ج١، ص٧٧.

(٢) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط ١٣٩٤هـ =١٩٧٤م) ج٣، ص٢٢٤.

(٣) الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، **رسائل الجاحظ**، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة، مكتبة الخانجي، د.ط ١٣٨٤هـ =١٩٦٤م) ج٣، ص٢٣٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ٥٤.

ومن الكلمات ذات الدلالة الخاصة، التي تكررت ثماني مرات، والتي تدل على الانتشار، والشيوع، ومقترنة بـ أيها- كلمة (الناس) وهي كلمة وظفها النبي ﷺ لتحمل أبعادًا إنسانية، وعالمية أعمق، وأدق مما لو استخدم كلمة المسلمين، أو المؤمنين، ذات النطاق الضيق، والمحصور بهذه الطائفة، لتتخطى حدود المكان؛ مكة وما حولها، لتعم جميع أنحاء الأرض، وحدود الزمان الحاضر زمن إلقاء الخطبة، لتمتد نحو المستقبل، ليترسخ في الأذهان عالمية هذه الدعوة، وانتشارها لتعم البشرية جمعاء، وهذا مصداق الحديث لشريف (لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ)(١).

ومن التراكيب التي تكرر ذكرها ست مرات في خطبة الوداع؛ فكرة البلاغ، (هَلْ بَلَّغْتُ) وغيرها.. ولعل هذا التكرار راجع إلى أهمية المضمون العام في النص، "فالسنة النبوية باعتبارها بيانا للقرآن تضمنت مواضع متعددة لفكرة البلاغ.. وهذا التكرار راجع إلى أهمية المذكور في النص؛ إذ يمثل قواعد الحياة الدينية، والدنيوية للمسلمين"(٢)، وقد ظهر هذا التقسيم، وهذا التكرار بشكل جلي في بدايات المقاطع، المستهلة بـ (أيها الناس) ونهاياتها، المختومة بـ (ألا هل بلّغْت، اللهم فاشهد)، وهي بدايات، ونهايات تخدم المقام العام للنص النبوي الشريف؛ مقام التوجيه، والتعليم، والإرشاد من جهة، ثم النذارة، والإعذار إلى الله ﷻ بتبليغ الرسالة، وأداء الأمانة من جهة أخرى، وهو ما يمكن تسميته بـ "تكرار التبرئة من القصور، والتهاون، والتقصير، والتعريض بانتقال التبعة إلى أهلها، وتحملهم حقوقها، مع الإشعار بعظم جانبها"(٣).

كما أكَّد ﷺ كل نصّ من نصوص الخطبة بقوله: (ألا هل بلّغْت)، وهو تكرار له

(١) ابن حنبل، أحمد بن محمد، **مسند الإمام أحمد**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، (مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ =٢٠٠١م)، باب حديث تميم الداري، رقم: ١٦٩٥٧، ج٢٨، ص١٥٤.

(٢) بوقرة، نعمان- النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسي..**قراءة نقدية في مرجعيات الخطاب اللساني وأبعاده المعرفية** (دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٤م) ص٥٣.

(٣) بدر الدين، أميمة، **التكرار في الحديث النبوي الشريف**، مجلة جامعة دمشق-مج٢٦، ع١،٢، للعام ٢٠١٠، ص٨٤.

دلالاته التي تهدف إلى إثبات الحجة، ورفع العتب، المقترن بالإقناع الملزم، وإقفال باب اللجاج، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد التأكيد والتقرير والحجة البينة؛ كما ظهر تكرار الحرف (ألا) وهو: "حرف استفتاح؛ أي يستفتح به الكلام، دالًا على تحقق ما بعده"(١)، وقد زاد الزبيدي في تاجه أنها تفيد الطلب بلين(٢)، وهو ما ظهر في هذا السياق النبوي الشريف، الذي تحقق فيه لين الطلب، مع تحقق التبليغ، والنذارة، ومع ما في هذه الأداة من "استنهاض قوى النفس، وبعث النشاط، فقد تكررت مع جملتها لاستغراق خبايا الشعور بالانتباه، وليحرك الشوق، والحماس عند الصحابة، لمعرفة الخير من الشر، وهم من أفنوا حياتهم، وفارقوا مضاجعهم من أجل ذلك(٣). ومن الملاحظ اقتران (ألا) في كل مرة بـ (هل)، وهو استفهام بمعنى (قد) وخرج عن معناه الحقيقي من أجل التقرير، وإثبات الحجة على المخاطبين، وليشهدهم جميعًا أنه قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وبذلك تصبح الدعوة معلقة في أعناقهم إلى أن يلقوا ربهم.

أَمَا وَإِنْ كان في الخطبة الشريفة طول بين؛ فهو طول طبعي، يتناسب مع أهميتها، والغرض الذي قيلت من أجله، فهي خطبة يودّع فيها النبي ﷺ أصحابه، بل البشرية جمعاء من جهة، ويعلمهم أمور دينهم في الحلقة الأخيرة من حياته من جهة أخرى، وهو طول يتوافق مع المقام، والجو النفسي العام الذي أنشئت الخطبة من أجله، وعلى الرغم من هذا الطول، إلا أن الخطبة جاءت متناسقة، محكمة، لا يعتريها الملل، ولا يصيبها السأم، لأنه ﷺ لم ينظم ولم ينمق من أجل النظم، والتنميق، والزخرفة، كما لم يتكلف عليه السلام، في شيء من ألفاظه، ولا معانيه، وإنما جاءت الألفاظ وكأنها قد قُدَّت على قدر معانيها دون إطناب ممل، أو إيجاز مخل، فلا غرو في ذلك فإنما هو عليه السلام صاحب دعوة، وحامل رسالة إنسانية، وفي "حاجة إلى توضيح مذهبه، وإرشاد قومه، ومناقشة خصومه، ببيان واضح، فلا يجنح به إلى

(١) أبو العزم، عبد الغني، **معجم الغني**، موقع المشكاة: www.almeshkat.net

(٢) الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، **تاج العروس**، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج٤٠، ص٣٧٩.

(٣) بدر الدين، أميمة، **التكرار في الحديث النبوي الشريف**، مجلة جامعة دمشق-مج٢٦، ع١،٢، للعام ٢٠١٠، ص٨٥.

المبالغة، والإغراق، ولا يميل به عن الواقع المشاهد إلى الخيال الشارد، فإذا كان في كلامه تأثير أخَّاذ، فهو تأثير الحق الأبلج، والمنطق السديد، واللفظ المحكم"[١]، وتدل لغة الخطبة التي بين أيدينا، على أنّ شخصية النبي ﷺ هي شخصية ذات هُويَةٍ متميزة، تنساب من خلالها الأفكار، والألفاظ انسيابًا سلسًا، متلاحمًا، بلا تكلف، أو تصنُّع، وهذه اللغة النبوية غنية بالإشارات، مشحونة بالدلالات، وتمثل منظومة دلالية منطوقة، وغير منطوقة متعددة الآفاق، وتتيح لأنساق النص تأويلًا، وتمنحها أبعادًا قرائية متنوعة لعلامات النص بشقيها؛ الظاهر، والباطن المسكوت عنه (إشارة، إيماءة، رمزًا..) والتي تستهدف المستوى الدلالي للنص.

وتقاطعًا مع قراءة غير المنطوق، نختم هذه المقاربات بقوله عليه السلام في نهاية الخطبة: ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. (قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد الغائب)، وهو الموضع الوحيد الذي استجوب فيه الرسول عليه السلام أصحابه، فأجابوه بـ (نعم)، ثم أردف بقوله: فليبلغ الشاهد الغائب، وفي هذا إشارة واضحة إلى أمرين:

الأمر الأول: أهمية مضمون الخطاب، وضرورة توصيله لعموم المسلمين.

الأمر الثاني: وهو يترتب على الأمر الأول؛ ألا وهو استشعاره بدنو أجله، مما جعله يؤكد على ضرورة إبلاغ عامة المسلمين، ثم ختم عليه السلام خطبته بهذه الإشارة اللطيفة الحانية في قوله: (من ادُعي إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله، والملائكةِ، والناس أجمعين، لا يُقبلُ منه صرفٌ، ولا عدلٌ. والسلام عليكم ورحمة الله)، فعلى الرغم من دلالات الحدة، والصوت المرتفع الذي جلل الفقرة.. إلا أنه عليه السلام -وهو الرحمة المهداة- لم يكن ليترك أصحابه دون أن يستودعهم خالقهم ﷻ، فيجللهم بالرحمة، ويغشيهم بالسلام، وهو دعاء منه عليه السلام لأمته، ودعاؤه ﷺ مستجاب، فكانت بداية خطبته بالحمد والتمجيد، وخاتمتها بالسلام والرحمة.

(١) البيومي، محمد رجب، **البيان النبوي**، (القاهرة، دار الوفاء، ط٢، ٢٠٠٢م) ص ٥٣.

المبحث الرابع: الحاضنة الصرفية

في مستهل هذا المبحث، وقبل الولوج في دراسة خطبة الوداع صرفيًّا، نرى ضرورة تحديد ماهية هذا العلم حسب رؤية أهل الاختصاص، فهو علم بأصول يعرف بها أحوال الكلمة العربية، بما لها من صحة وإعلال، وقلب وإبدال، وأَصالة وزيادة(١)، بينما علم النحو هو علم بأصول تعرف بها أحوال أواخر الكلمة العربية من جهة الإعراب والبناء(٢).

لقد أسهم اللغويون العرب بجهود كبيرة في الكشف عن القوانين الصرفية للغة العربية، ودارت جهودهم الدراسية في هذا المجال حول الصيغ الصرفية للكلمات العربية، فتم تقعيدها، وتحديد أصنافها، وأنواعها وأقسامها في الاسم والفعل، ثم تطور الدرس العربي في هذا المجال ليشمل الدلالات الخاصة بكل صيغة صرفية، ونجد هذا عند الصرفيين، واللغويين الذين أفردوا أبوابًا لمعاني صيغ الزوائد، أو معاني صيغ الأفعال.

والمتأمل في خطبة الوداع يلاحظ أن هناك ظواهر صرفية عديدة موجودة في خطبة الوداع، التي نحن بصدد دراستها، ومن هذه الظواهر؛ الاشتقاق، وقد عرفه أكثر أهل هذا العلم بأنه: أخذ كلمة من أخرى مع تناسب بينهما فِي الْمَعْنى وَاخْتِلَاف فِي الصِّيغَة، وهي ظاهرة حيوية في اللغة العربية، تدل على ما تتمتع به من مرونة، وسعة، ويقصد بها أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة، لأجلها اختلفا حروفا، أو هيئة؛ كضارب من ضرب وحَذِرٌ من حَذِر"(٣)، وقد قسمه ابن جني إلى قسمين: الاشتقاق الأصغر، والاشتقاق الأكبر(٤)، وقد لوحظ أنه سماه تارة الاشتقاق الصغير، وتارة الأصغر، فقام بعض الباحثين بتقسيمه إلى: صغير، وكبير،

(١) الدقر، عبد الغني بن علي- معجم القواعد العربية، (د.ت)، (د.ط) مكتبة مشكاة الإسلامية، ج١، ص٢٠٩.

(٢) الحازمي، أحمد بن عمر بن مساعد ، فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية، ط١، ١٤٣١ هـ = ٢٠١٠ م، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، ص٢١.

(٣) السيوطي، جلال الدين؛ عبد الرحمن بن أبي بكر، **المزهر في علوم اللغة**، تحقيق: فؤاد علي منصور، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م، ج١، ص٢٧٥.

(٤) ابن جني، **الخصائص**، تحقيق: محمد النجار، ج٢، ص١٣٤.

وأكبر[١]؛ فالصغير هو أَخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى، ومادة أَصلية، وهيئة تركيب؛ كضارب من الضرب، وحذر من الحذر، وهذا النوع هو أكثر أنواع الاشتقاق ورودًا.

أما الاشتقاق الكبير فهو أَخذ كلمة من كلمة مَعَ تناسبهما فِي الْمَعْنى، واتفاقهما فِي الْحُرُوف الْأَصْلِيَّة دون ترتيبها، مثل: حمد ومدح، وأيس ويئس، والحلم وَالْحمل، ويعرف هَذَا النَّوْع بالْقلب المكاني. ومن ذلك قوله ﷺ: (إن الشيطان قد **يئس** أن يعبد في أرضكم)، ولا يخفى ما في كلمة (يئس) من قلب مكاني، أو ما يعرف بالاشتقاق الكبير، وما بين (يئس، وأيس) كذلك. ومثله ما استفتح به النبي ﷺ خطبته بقوله: الحمد لله، فالفعل (حمد): جاء على معنى (مدح)، وهو ما يعرف بالاشتقاق الكبير، أو القلب المكاني، مع ما بينهما من تناسب في المعنى.

أما الاشتقاق الأكبر فهو أخذ لَفْظَة من أُخْرَى مَعَ تناسبهما فِي الْمَعْنى واتحادهما فِي أغلب الْحُرُوف، مَعَ كَون المتبقي من الْحُرُوف من مخرج، أَو مخرجين متقاربين مثل: نعق ونهق، وهتن وهتل، وثلب وثلم، وَيُطلق على هَذَا النَّوْع أَحْيَانًا الْإِبْدَال اللّغَوِيّ[٢]، ولهذا فقد ذكر الفراء أن المصدر يجيء بمعنى المفعول، كما في جنين- بمعنى مجنون، وقتيل بمعنى مقتول، فكذلك (نسيء بمعنى منسوء). يقول الفراء: "النسيء المصدر، ويكون المنسوء، مثل قتيل ومقتول، والنسيء، فعيل بمعنى مفعول من قولك نسأت الشيء، فهو منسوء إذا أخرته، ثم يحول مَنْسُوءٌ إلى نسيءٍ، كما يحول مقتول إلى قَتيل"[٣]، كما ربط القدماء المصادر بمعانيها، فالصيغة التي تدل على الحرف، والصناعات هي (فِعالة) بكسر الفاء، نحو: (خياطة)، وعدوا

(١) الشمري، شيماء متعب محمود، **أبنية الصرف في تفسير روح المعاني لأبي الثناء الألوسي، دراسة صرفية دلالية،** (رسالة ماجستير)، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، قسم اللغة العربية، بإشراف الدكتورة خديجة زبار عنيزان الحمداني، ١٤٢٥هـ=٢٠٠٥م، ص١٨٣-١٨٤. (بتصرف)

(٢) ابن مالك، أبو عبد الله، جمال الدين محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، **من ذخائر ابن مالك في اللغة مسألة من كلام الإمام ابن مالك في الاشتقاق،** تحقيق: محمد المهدي عبد الحي عمار، مجلة جامعة المدينة المنورة، السنة التاسعة والعشرون، العدد السابع بعد المائة. ١٤١٨-١٤١٩هـ = (١٩٩٨- ١٩٩٩م، ص٢١٥-٢١٧.
وينظر أيضًا: ابن جني، **الخصائص،** تحقيق: محمد النجار، ج٢، ص١٣٤، وما بعدها.

(٣) الهروي، أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهري، **تهذيب اللغة،** تحقيق: محمد عوض مرعب، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠١م) ج١٣، ص٥٧.

هذا المنهج خير طريقة، لأنها تبين المعاني التي تفيدها بعض المصادر وهي قياسية [1]، ومن ذلك ما جاء في خطبة الوداع (السقاية – السدانة)، وهما إن لم تكونا حرفتين للتكسب عند العرب، فإنهما في مقام الحرف على القياس، وهما شرف عظيم لمن يقوم عليهما، ومن الطريف أن كلا من (سقاية – سدانة) وهما على وزن (فِعالة) مما جاء للدلالة على الحسن، يقول سيبويه: "أما ما كان حسنا أو قبحًا فإنه مما يبنى فعله على (فعل ـ يفعل)، ويكون المصدر (فعالًا) و(فِعالة) و(فعلًا)"[2]، وهذا ما ينسجم مع طبيعة كل من اللفظتين.

كما جاء أفعل التفضيل في خطبة الوداع محذوف الهمزة، فهناك ثلاثة ألفاظ اشتهرت بحذف همزتها وهي: (خير – شر – حب)، وقد قال ﷺ: وأستفتح بالذي هو (خير)، وهنا جاء أفعل التفضيل على وزن (فَعْل)، على غير قياس والقاعدة أن يأتي على وزن أفعل.

كما يجيء اسم المفعول (موضوع) على وزن مفعول، بمعنى الصفة المشبهة (وضيع) فعيل، كجميل، يقال:" (وضع) الرجل (يوضع) صَار وضيعًا أَي دنيئا فَهُوَ وضيع وموضوع.. "[3]، ولعل هذا ما يناسب دلالة قوله ﷺ: (ربا الجاهلية موضوع– دماء الجاهلية موضوعة).

ويرى المبرد أن دلالة اسم الفاعل بصيغته الأصلية دلالة تجمع الاحتمالين (الكثرة، والقلة)، حيث يقول: "رجل قتال إذا كان كثير القتل، فأما (فاعل) فتكون للقليل والكثير لأنه الأصل)[4]. يبدو من سياق الخطبة أن اسم الفاعل (الجاهلية) قد دل على الكثرة، لقوله ﷺ: (مآثرَ الجاهلية)، (أهل الجاهلية) حيث اقترن اسم الفاعل بمآثر، وأهل، وهما لفظان يدلان على الكثرة والشمول.

(١) ينظر: ابن سيدة، علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي، **المخصص**، تحقيق: خليل إبراهم جفال (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م) ج٤، ص.١٣٥

(٢) سيبويه، أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٣، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م) ج٤، ص٢٨.

(٣) الزيات، أحمد– مصطفى، إبراهيم، وآخرون (مجمع اللغة العربية بالقاهرة) **المعجم الوسيط**، (د.ط. ت، القاهرة، دار الدعوة) ج٢، ص١٠٣٩.

(٤) المبرد، أبو العباس،محمد بن يزيد، **المقتضب**– تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة (د.ط، ت بيروت، عالم الكتب) ج٢، ص١١٣.

كما لوحظ شيوع جموع التكسير بنوعيها: (القلة-الكثرة)، وقل وجود جموع التصحيح إلا ما ورد كالسموات، المؤمنون، سيئات، متواليات، وهي جموع سالمة، وأما جموع الكثرة فمثل: (دماء، شهور، رقاب، حرم، فُرُش، مضاجع، عوان، فروجهن). أما جموع القلة فهي: (أعمالكم، أنفسهن، أنفسنا، إخوة). أما أسماء الجموع فهي: (الناس، نساء).

وغالبًا ما يشترك جمعا القلة والكثرة في الأسماء، فيحل أحدهما محل الآخر، وقد تنبه الألوسي إلى ظاهرة كثرة صيغ جموع التكسير في العربية، وتعددها في الاسم الواحد؛ حيث أرجعها إلى تعدد لهجات العرب، وقد نقل اللغويون تلك الجموع وصنفوها، فعدوا الكثير قياسًا، والقليل مسموعًا لا يقاس عليه[١]، لقد اعتد الألوسي بالسماع كثيرًا، وهو الأصل عنده، يأخذ به، ويعتمد عليه، ولا يقبل شيئًا إذا خالف المسموع، إذ قال (ومن سمع حجة على من لم يسمع)[٢].

كما جاءت الصفة المشبهة (حرام) وهي مصدر قام مقام الوصف، على وزن (فَعَال)، لتدل على معنى اسم المفعول (محرَّم) المشتق من غير الثلاثي (حرَّم)، كما في قوله ﷺ: (إن دماءكم حرام عليكم) أي محرمة عليكم، كما استعمل المصدر على وزن (فُعْلَة) للدلالة على معنى مصدر آخر على وزن (تفعيل)، حيث يقول ﷺ: (كحرمة يومكم هذا)، أي تحريم يومكم هذا.

المبحث الخامس: الحاضنة النحوية

ومن الظواهر النحوية في خطبة الوداع؛ ظاهرة الحذف[٣]، يقول أبو حيان الأندلسي: "يعني بالمضمر؛ المحذوف. وهو موجود في اصطلاح النحويين، أعني أن يسمى الحذف إضمارًا"[٤] ويقول الشهاب الخفاجي في حاشيته على تفسير البيضاوي: "وقد يستعمل كل

(١) ينظر: الألوسي، شهاب الدين، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم** ، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ج٧، ص١٨، ج١٧، ص٢١٢، ج٣، ص ١٤٨.

(٢) الألوسي، شهاب الدين، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ج١٣، ص٢٤٤.

(٣) وربما سماه البعض (إضمارًا).

(٤) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، **تفسير البحر المحيط**، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م) ج١، ص٦٤٣.

منهما بمعنى الآخر كما يعلم بالاستقراء"[١]، ويذهب أكثر النحويين إلى عدم جواز حذف الحروف، ولهذا قال ابن جنّي: "اعلم أنّ الحروف لا يليق بها الزيادة، ولا الحذف، وإنَّ أعدل أحوالها أنّ تستعمل غير مزيدة ولا محذوفة"[٢]. كما قال: أخبرنا أبو علي -رحمه الله- قال: قال أبو بكر[٣]: "إن الغرض في الحروف إنما هو الاختصار، ألا ترى أنك إذا قلت: ما قام زيد. فقد نابت (ما) عن (أنفي)، وإذا قلت: هل قام زيد؟ فقد نابت (هل) عن (أستفهم)؛ فوقوع الحرف مقام الفعل وفاعله غاية الاختصار، فلو ذهبت تحذف الحرف تخفيفًا، لأفرطت في الإيجاز؛ لأن اختصار المختصر إجحاف به[٤]، هذا هو الأصل عند النحويين في حذف الحروف، واستُثنِيَ من هذا الأصل حذف حرف الجرِ من (أَنْ) و(أَنَّ) وعدُّوا ذلك مطَّردًا. قال سيبويه: "وتقول: لبيك إنَّ الحمد والنعمة لك، وإن شئت قلت أن. ولو قال إنسان: إنَّ (أنَّ) في موضع جرٍّ في هذه الأشياء، ولكنه حرفٌ كثر استعماله في كلامهم، فجاز فيه حذف الجار" ، كما حذفوا (رُبَّ) في قول أبي النجم:

وبلد تحسبه مكسوحا يطوح الهادي به تطويحا

إذا علا دويه المندوحا

لكان قولًا قويًا) [٥].

وقال في موضع آخر: "واعلم أنّ اللام ونحوها من حروف الجر قد تحذف من (أَنْ) ساكنة النون، كما حذفت من (أَنَّ) المشددة، جعلوها بمنزلة المصدر حين قلت: لا تفعل كذا وكذا أن يصيبك أمر تكرهه، كأنه قال: لأن يصيبك"[٦]. ومذهب الخليل والكسائي في "أنّ وأنْ" عند حذف حرف الجر المطرد حذفه أنهما في محل جر، ومذهب سيبويه والفراء أنهما في

(١) الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر، **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة: عناية القاضى وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي** (د. ت. ط، بيروت، دار صادر، ج١، ص١٧٨، ١٧٩.

(٢) ابن جني، أبو الفتح عثمان، **سر صناعة الإعراب**، تحقيق: د.حسين هنداوي، ج١، ص٢٦٩.

(٣) أبو بكر بن السراج شيخ أبي علي الفارسي.

(٤) ابن جني، أبو الفتح عثمان، **سر صناعة الإعراب**، تحقيق: د.حسين هنداوي، ج١، ص٢٦٩.

(٥) سيبويه، أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج٣، ص١٢٨.

(٦) سيبويه، أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج٣، ص١٥٤.

محل نصب وهو الأصح، لأن بقاء الجر بعد حذف عامله قليل، والنصب كثير، والحمل على الكثير أولى من الحمل على القليل"[١]، وعلى هذا فيمكن تقدير حرف الجر المحذوف في قوله ﷺ: (وأشهد أنُ لا إلا الله وحده لا شريك له)، والتقدير (بأنَّ)، وكذلك قوله ﷺ: (وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله)، حيث يمكن تقدير حرف الجر المحذوف وهو الباء(بأنَّ)، كما يمكن تقدير حرف الجر المحذوف في قوله ﷺ: (فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا) باللام (لأنِّي).

فالحذف ظاهرة تشترك فيها لغات كثيرة، لكنها في اللغة العربية أوضح، وبها ألصق، ومن ذلك -أيضًا- حذف ضمير النصب (الهاء) في قوله ﷺ: (مما تحقرون) أي: مما تحقرونه، وقوله: (من يهد الله..)، والتقدير: من يهده الله، وقوله: (ومن يضلل فلا هادي له)، والتقدير: من يضلله الله... وكذلك حذف الاسم الظاهر؛ المفعول به، كما في قوله: (فإن فعلن..) أي (الفاحشة)، وفي ذلك من الإيجاز الشديد ما لا يخفى، وقد سمّاه السيوطي إيجاز الحذف، وفائدته، إضافةً إلى الاختصار، والاحتراز عن العبث لظهوره، صيانةُ اللسان عنه تحقيرًا له"[٢]، وبالإضافة إلى ما ذكر آنفًا "فإن جمالية أسلوب الحذف تكمُن في مراعاة خفَّة الألفاظ على اللِّسان والتئام بعضها مع بعض، والمحافظة على توازن العبارة ودِقَّةِ إيحاء وقعِها"[٣]، وهو ظاهر بين فيما سبق من شواهد.

أما حذف حروف النداء؛ فالأصل في حروف المعاني أنها موضوعة لاختصار الكلام، و"حذف الحروف مما يأباه القياس؛ لأن الحروف إنّما جيء بها اختصارًا، ونائبة عن الأفعال، فـ (ما – لا) النافية نائبة عن الفعل (أنفي)، يقول ﷺ: (ولا يجوز لوارث وصية، ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث) فقد أغنت (لا) النافية اختصارًا عن التصريح بالفعل: (أنفي).

---

(١) ابن مالك، أبو عبد الله، جمال الدين محمد بن عبد الله، **شرح تسهيل الفوائد**، تحقيق: د.عبدالرحمن السيد، د.محمد مختون، (الجيزة، مصر، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م) ج٢، ص١٥٠.
وينظر: ابن مالك، أبو عبد الله، جمال الدين محمد بن عبد الله، **شرح الكافية الشافية**، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي، (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، د.ط، ت)، ج٢، ص٦٣٤.

(٢) السيوطي، جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٣، ص١٩٢.

(٣) جمعة، حسين، **في جمالية الكلمة**، (دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ط٢٠٠٢م) ص٨٧.

وهمزة الاستفهام، أو هل، نائبة عن (استفهِمُ)، يقول ﷺ: (ألا هل بلغت)، فقد ناب الاستفهام بـ (هل) عن الفعل: أستفهم. و كذلك حروف العطف تنوب عن (أعطفُ)، يقول ﷺ: (كلكم لآدم، وآدم من تراب)، فقد ناب حرف العطف عن الفعل (أعطف) في سائر الخطبة. وحروف النداء -كذلك- نائبة عن الفعل (أنادِي) يقول ﷺ: (أوصيكم عباد الله بتقوى الله)، فعلى الرغم من حذف أداة النداء؛ إلا إن عملها، ومعناها باق، وأفادت اختصار الكلام، عن استخدام الفعل (أنادي)، وذلك في سائر أمثلة النداء الموجودة في الخطبة الشريفة. فإذا أخذتَ تحذفها كان اختصار المختصر، وهو إجحاف، إلا إنه قد ورد فيما ذكرناه [من حذف الحرف] لقوَّة الدلالة على المحذوف، فصار القرائن الدالة كالتلفظ به"[1] غير أن هذه الحروف قد تحذف من الكلام لدلالة الحال عليها؛ حيث حذفت أداة النداء في عدد من المواضع ومنها: (أوصيكم عباد الله) كذلك حذفها المتكرر في قوله ﷺ: (أيها الناس) و (اللهم اشهد).

وقد وصف عبد القاهر الجرجاني في دلائله الحذف بأنه: "باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر؛ فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن"[2]، كما لوحظ أن النبي ﷺ كان يستهل كل فقرة من خطبته هذه بـ (أيها الناس) وهو نداء كوني لطيف، مسكون بالحب، والحنان، والحدب، والشفقة على المنادى؛ وهم المسلمون وغير المسلمين، حيث لم يستثن أحدًا من بني آدم، لقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [3] وإن كان سياق الخطاب موجهًا للمسلمين زمانًا ومكانًا.

ومما يسترعي الانتباه أن النبي ﷺ قد استغنى في خطابه السابق عن أداة النداء؛ (يا) أو

(١) ابن يعيش، محمد بن علي، يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا، **شرح المفصل للزمخشري**، تقديم: د. إميل بديع يعقوب،(بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢ هـ =٢٠٠١م) ج١، ص٣٦٢.

(٢) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، تحقيق: محمود شاكر، ط٣، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م، (مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة).

(٣) سورة سبأ: الآية ٢٨.

غيرها من الأدوات الأخرى..، ليعبر عن قربه منهم، مما جسد قيم التلاحم، والحميمية، وأزال الهوة بينهم، وبين معلمهم، وقدوتهم ﷺ. يقول ابن الحاجب عن أداة النداء (يا): إنها حقيقة في القريب، والبعيد، لأنها لطلب الإقبال مطلقًا، وقال الزمخشري: إنها للبعيد[١]، بدليل أنهم وضعوا (الهمزة، وأي) للقريب[٢]، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من جماليات الحذف، وفوائده.

***

النتائج والتوصيات:

الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات:

لعل من أهم النتائج التي توصل إليها البحث ما يلي:

١) جلَّت الدراسة كوامن التناسق والتكامل بين حاضنات النص المختلفة موضع الدراسة.

٢) أمكن تطبيق الجانب التحليلي التفسيري من المنهج البنيوي، دون التعرض لإصدار الأحكام، انسجامًا مع فلسفة هذا المنهج، دون الانزلاق في متاهة الفكر الفلسفي للبنيوية، بحيث نستفيد من هذه المناهج بقدر حاجتنا، وندع ما لا حاجة لنا به.

٣) تبين من خلال الدراسة ما تتمتع به الخطابة النبوية من تميز وتفرد، دون كلام البشر.

٤) أثبتت الدراسة أن الخطبة قمة سامقة؛ فصاحةً، وبلاغةً، فهي صياغة بشرية، لمضامين ربانية.

٥) ولعل من النتائج التي توصل إليها البحث، ندرة الأبحاث الموجهة لخطبة الوداع.

***

(١) ينظر: المغربي، ابن يعقوب-**مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح – ضمن شروح التلخيص**، مطبعة البابي الحلبي – ١٩٣٧م، ص٣٣٤.

(٢) ينظر: الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، (بيروت، المكتبة العصرية، د.ت،ط) ص٨٩.

المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم.

٢) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (١٤١٧هـ= ١٩٩٧) **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١ (بيروت، دار الكتاب العربي.

٣) ابن جني، أبو الفتح عثمان (١٩٨٥م)، **سر صناعة الإعراب**، تحقيق: د.حسين هنداوي، ط١، دمشق، دار القلم.

٤) ابن جني، أبو الفتح عثمان، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار (بيروت، عالم الكتب، ط٤، د.ت).

٥) ابن حنبل، أحمد بن محمد (١٤٢١ هـ=٢٠٠١م) **مسند الإمام أحمد**، تحقيق: **شعيب الأرناؤوط**، عادل مرشد، وآخرين (ط١) إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة.

٦) ابن حنبل، أحمد بن محمد، (١٤١٦هـ=١٩٩٥م) **مسند الإمام أحمد** بن حنبل، تحقيق: **أحمد محمد شاكر** (ط١) القاهرة، دار الحديث.

٧) ابن سيدة، علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي(١٤١٧هـ ١٩٩٦م)، **المخصص**، تحقيق: خليل إبراهم جفال، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٨) ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد(١٤٠٤هـ)، **العقد الفريد** (د. تح) ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.

٩) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، (١٤١٤هـ=١٩٩٤م) **تفسير القرآن العظيم**،تحقيق: محمود حسن، (د.ط)، دار الفكر.

١٠) ابن مالك، أبو عبد الله، جمال الدين محمد بن عبد الله، (١٤١٠هـ-١٩٩٠م) **شرح تسهيل الفوائد**، تحقيق: د.عبدالرحمن السيد، د.محمد مختون، ط١، الجيزة، مصر، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.

١١) ابن مالك، أبو عبد الله، جِمال الدين محمد بن عبد الله، (د.ت) **شرح الكافية**

الشافية، تحقيق: عبد المنعم أحمد هريدي، (د.ط) مكة المكرمة، جامعة أم القرى.

١٢) ابن مالك، أبو عبد الله، جمال الدين محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، (١٤١٨-١٤١٩هـ =١٩٩٨- ١٩٩٩م)، **من ذخائر ابن مالك في اللغة مسألة من كلام الإمام ابن مالك في الاشتقاق**، تحقيق: محمد المهدي عبد الحي عمار، (د.ط) مجلة جامعة المدينة المنورة، السنة التاسعة والعشرون. العدد السابع بعد المائة..

١٣) ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين، **لسان العرب** (بيروت، لبنان، دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ).

١٤) ابن هشام، عبد الملك، (١٣٧٥هـ= ١٩٥٥م)، **سيرة ابن هشام**، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، (د.ط) القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

١٥) ابن يعيش، محمد بن علي، يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا (١٤٢٢هـ =٢٠٠١م) **شرح المفصل** للزمخشري- تقديم: د. إميل بديع يعقوب، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.

١٦) أبو العزم، عبد الغني، **معجم الغنى**، موقع المشكاة: www.almeshkat.net

١٧) أبو الفرج، محمّد أحمد، (١٩٦٩م) **مقدّمة لدراسة فقه اللغة** ط١، بيروت، دار النهضة العربية.

١٨) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، (١٤٢٢هـ=٢٠٠١م)، **تفسير البحر المحيط**، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرين ، (ط١) بيروت، دار الكتب العلمية.

١٩) أبو زهرة، محمد، (د.ت) **الخطابة أصولها. تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، القاهرة، (د.ط)** دار الفكر العربي.

٢٠) أبو علي، نبيل (١٩٩٣م) **نقد النثر في تراث العرب النقدي**، (د.ط) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢١) أبو موسى، محمد، (٢٠٠٤م) **التصوير البياني**، ط٥، القاهرة، مكتبة وهبة.

٢٢) الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، (١٤١٥هـ) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية، (ط١) بيروت، دار الكتب العلمية.

٢٣) امبرتوايكو، (١٩٨٧م) **في أصول الخطاب النقدي الجديد (تحليل اللغة الشعرية)**، ط١، ترجمة: أحمد المديني، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة.

٢٤) أنيس، إبراهيم، (د.ت) **الأصوات اللغوية، (د.ط)** (القاهرة، مكتبة نهضة مصر.

٢٥) الباقلاني، أبو بكر، (١٩٩٧م)**إعجاز القرآن**، ط٥، تحقيق: السيد أحمد صقر، (القاهرة، دار المعارف.

٢٦) بدر الدين، أميمة، (٢٠١٠م) **التكرار في الحديث النبوي الشريف**، مجلة جامعة دمشق-مج٢٦، ع١،٢.

٢٧) بدر الدين، أميمة، **التكرار في الحديث النبوي الشريف**، مجلة جامعة دمشق-مج٢٦، ع١،٢، للعام.

٢٨) بشر، كمال، (د.ت) **دراسات في علم اللغة**، (د. ط) القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع).

٢٩) بصل، محمّد إسماعيل، **(د.ت) مدخل إلى معرفة اللسانيّات**، (د.ط) (دمشق، دار المتنبّي.

٣٠) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد، (١٤٠٣هـ=١٩٨٣م) **شرح السنة**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط-محمد زهير الشاويش، (ط٢) دمشق، بيروت، المكتب الإسلامي.

٣١) بلبع، عيد، (١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م) **مقدمة في نظرية البلاغة النبوية، السياق وتوجيه دلالة النص**، ط١، بلنسية للنشر والتوزيع.

٣٢) البهنساوي، حسام، (١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م) **علم الأصوات**، ط١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية.

٣٣) بوقرة، نعمان، (٢٠٠٤م)، **النظرية اللسانية عند ابن حزم الأندلسي..قراءة نقدية في مرجعيات الخطاب اللساني وأبعاده المعرفية**، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

٣٤) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، (١٤٢٤ هـ=٢٠٠٣ م) **سنن البيهقي**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط٣، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

٣٥) البيومي، محمد رجب، (٢٠٠٢م) **البيان النبوي**، ط٢، القاهرة، دار الوفاء.

٣٦) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، (١٩٩٢م) **المقابسات**، تحقيق: حسن السندوبي، ط٢، الكويت، دار سعاد الصباح.

٣٧) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون (القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٧، ١٤١٨هـ=١٩٨٨م).

٣٨) الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر (١٣٨٤هـ=١٩٦٤م) **رسائل الجاحظ**، تحقيق: عبد السلام هارون، (د.ط) القاهرة، مكتبة الخانجي.

٣٩) الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (١٤١٣هـ = ١٩٩٢م) دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمود شاكر، ط٣، القاهرة، جدة.

٤٠) جمعة، حسين (٢٠٠٢م) **في جمالية الكلمة**، (د.ط) دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب.

٤١) حسان، تمام، (١٩٧٩م) **مناهج البحث في اللغة، (د.ط)** (القاهرة، ***دار الثقافة***.

٤٢) حسان، تمام، (د.ت) **مناهج البحث في اللغة، (د.ط)** القاهرة، ***مكتبة الأنجلو المصرية***.

٤٣) الخضري، محمد بن مصطفى، (د.ت) **حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك**، (د.ط) دمشق، دار الفكر.

٤٤) الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر، (د.ت) **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة: عناية القاضى وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي،** (د.ط)، بيروت، دار صادر.

٤٥) الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي،(١٤٢٠هـ=١٩٩٩م) **مختار الصِّحاح**- تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط٥، بيروت، صيدا، المكتبة العصرية، الدار النموذجية.

٤٦) الرافعي، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر،(١٤٢٥هـ= ٢٠٠٥م) **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية،** ط٨، بيروت، دار الكتاب العربي.

٤٧) الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، (د.ت) **تاج العروس،** تحقيق: مجموعة من المحققين (د.ط)، دار الهداية.

٤٨) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (١٤٠٧هـ) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل،** (د.ط) (د.تح)، ط٣، بيروت، دار الكتب العلمية،

٤٩) الزملكاني، كمال الدين، (د.ت) **البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن،** تحقيق: د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، (د.ط) رئاسة ديوان الأوقاف، إحياء التراث الإسلامي.

٥٠) الزيات، أحمد- مصطفى، إبراهيم، وآخرون، (د.ت) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط،** (د.ط) القاهرة، دار الدعوة.

٥١) سالم، سافرة ناجي، (٢٠٠٧م) **سيميائية اللغة الدرامية (بحث محكم)** مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بغداد، ع٥٢،.

٥٢) السعران، محمود (١٩٩٧م) **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي،** (ط٢) القاهرة، دار الفكر العربي.

٥٣) السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، (١٤٠٧هـ=١٩٨٧م) **مفتاح العلوم،** ضبط وتعليق: نعيم زرزور، (ط٢) بيروت، دار الكتب العلمية.

٥٤) سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، (١٤٠٨هـ=١٩٨٨م) **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (ط٣) القاهرة، مكتبة الخانجي.

٥٥) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، (١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م) **معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى: إعجاز القرآن ومعترك الأقران**، (د.تح) (ط١)، بيروت، دار الكتب العلمية.

٥٦) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، (١٤١٨هـ= ١٩٩٨م) **المزهر في علوم اللغة**، تحقيق: فؤاد علي منصور، (ط١)، بيروت، دار الكتب العلمية.

٥٧) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، (١٣٩٤هـ =١٩٧٤م) **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥٨) الشمري، شيماء متعب محمود، (١٤٢٥هـ=٢٠٠٥م) **أبنية الصرف في تفسير روح المعاني لأبي الثناء الألوسي، دراسة صرفية دلالية**، (رسالة ماجستير)، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، قسم اللغة العربية، بإشراف الدكتورة خديجة زبار عنيزان الحمداني.

٥٩) صفوت، أحمد زكي، **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**، (د. ط، ت، بيروت، المكتبة العلمية).

٦٠) الصكر، حاتم (١٩٩٨م) **ترويض النص دراسة للتحليل النصي في النقد المعاصر، إجراءات ومنهجيات** (د.ط) القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٦١) عبد التواب، رمضان، (١٤١٧هـ=١٩٩٧م) **المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللُّغوي**، ط٣، القاهرة، مكتبة الخانجي.

٦٢) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران، (١٤١٩هـ)**الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط) بيروت، المكتبة العصرية.

٦٣) العسكري، أبو هلال، **(د.ت) الفروق اللغوية**، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، (د.ط) القاهرة، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع.

٦٤) عمر، أحمد مختار (١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م)، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، ط١، القاهرة، عالم الكتب.

٦٥) عمر، أحمد مختار، (١٩٩٧م) **دراسة الصوت اللغوي**، (د.ط) (القاهرة، عالم الكتب.

٦٦) الغريبي، خالد، (١٩٩٢م)، **النص مشروع تساؤل**، (مقال) تونس مجلة الحياة الثقافية، ع٦٤.

٦٧) فالح، جليل رشيد، **خطبة الوداع دراسة بلاغية تحليليّة** مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد ١٣.

٦٨) القرطاجني، حازم بن محمد بن حسن، (د.ت) **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، (د.ط) بيروت، دار الغرب الإسلامي.

٦٩) القزويني الرازي، أحمد بن فارس بن زكرياء، (١٤١٨هـ= ١٩٩٧م) **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، (د.تح) ط١، بيروت، دار الكتب العلمية.

٧٠) القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، (١٤١٩هـ= ١٩٩٨م) **الإيضاح في علوم البلاغة**، تحقيق: بهيج الغزاوي، ط٤، بيروت، دار إحياء العلوم.

٧١) القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، (د.ت) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، (د.تح، ط) بيروت، دار الكتب العلمية.

٧٢) الكبيسي، طراد، (حزيران ١٩٩٣م) **ملاحظات في النص، مجلة أفكار**، عمان، ع١١١.

٧٣) الكسي، أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكَسّي ويقال له: الكَشّي بالفتح والإعجام، (١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م) **المنتخب من مسند عبد بن حميد**، تحقيق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي،ط١، القاهرة، مكتبة السنة.

٧٤) المبرد، أبو العباس، محمد بن يزيد، (د.ت) **المقتضب**– تحقيق: محمد عبد الخالق

عظيمة (د.ط) بيروت، عالم الكتب).

٧٥) المصري، عبد الفتاح بن السيد عجمي بن السيد العسس المرصفي، (د.ت) **هداية القاري إلى تجويد كلام الباري** ط٢، المدينة المنورة، مكتبة طيبة.

٧٦) المغربي، ابن يعقوب، **مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح**، (مطبعة البابي الحلبي، د.ط، ١٩٣٧م).

٧٧) منير، وليد (١٩٩٧م) **النص القرآني من الجملة إلى العالم**، ط١، القاهرة، المعهد العالي للفكر الإسلامي.

٧٨) نور الدين، عصام، (١٩٩٢م) **علم وظائف الأصوات اللغوية الفونولوجيا**، ط١، بيروت، دار الفكر اللبناني.

٧٩) النيسابوري، مسلم بن الحجاج، (د.ت) **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (د.ط) بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٨٠) الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى، (د.ت) **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، (د.ط) بيروت، المكتبة العصرية.

٨١) الهروي، أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهري، (٢٠٠١م) **تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٨٢) هلال، عبد الغفار حامد، (٢٠٠٩م) **الصوتيات اللغوية.. دراسة لغوية على أصوات اللغة العربية**، ط١ (القاهرة، دار الكتاب الحديث.

***